

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

مايو ٢٠٠٦ ـ العدد ٢٤٩

محمد الماغوط: الكَمَان والعاصفة

إعاقة المجتمع المدني

الشاذلي: سكة العشق الجميل

مندور: النقد معركة سياسية

ثورات المستضعفين في الإسلام

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى
تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الثالثة والعشرون
العدد ٢٤٩ مايو ٢٠٠٦



الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالى / مجلة [أدب ونقد] : داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا
شركة الأمل للطباعة والنشر

.الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدى أو البريد الالكترونى :
adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت : adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن ثمانى صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالى
القاهرة / هاتف ٥٧٩١٦٢٨/٢٩ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات

أول الكتابة

الوردة فى الحديقة

الحديقة ممتلئة بالورد .. بيضاء وصفراء، حمراء زرقاء ووردية، برتقالية بنفسجية وقرمزية، هكذا تشكلت رغم أنها سقيت كلها بماء واحد، وانزرعت جميعا فى تربة واحدة طميها واحد، سطعت عليها شمس الله الواحدة وتنفست هواءه.

للوردة سرها إذن.. لعله يكمن فى الاختلاف والفرادة ويخاصم من البداية كل سعى للتنميط حتى لو كانت الطبيعة نفسها تتطلع إليه.. هكذا هو كل كائن حى، إنه فريد في ذاته حتى لو انسحقت فرادته تلك بقوة قاهرة ما فإنه يظل يفصح عما يميزه ولو بطرق مراوغة. حتى النمل حين راقب العلماء سلوكه تبينوا أيضا تنوعه الهائل واختلاف حركة كل نملة عن الأخرى رغم التشابهات الكثيرة.. والانضباط الصارم وتوزيع الأدوار.

ما بالنا إذن بالإنسان الذى قال عنه «شكسبير»: أى تحفة فريدة هو... وكان وهو يكتب ذلك البيت الأصيل من الشعر يتحدث عن مطلق الإنسان لا عن ملك أو إمبراطور .. كان يستدعى الصيادين والرعاة .. الحدادين والنجارين والمهرجين وحتى العاهرات.

ولكن كاتبا كبيرا مثل «يحيى حقى» رأى فى روايته «قنديل أم هاشم» الجمهور ككتلة واحدة صماء تكرارية ساكنة.

ولا غرابة إذن أن يقارن بينها وبين النمل والرمل وهى شاردة من بؤسها وتخلفها، وقانعة بأن الظلم عقاب على آثام ارتكبتها،) والجمهور شخصية جماعية جاهلة مفعول بها «كتلة سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى

كنفها» ويمكن للمرء أن يتساءل هل هو الغضب من البؤس أم احتقار البائسين؟

لكن بوسعنا أن نجد فى هذه النظرة للبشر كجماعة آثار الرؤية المثالية الرومانسية التى تغلفها فلسفيا نزعة أنثروبولوجية ترد المجتمع كله إلى ميول الناس الطبيعية البيولوجية وتنفى عوامل تطوره الاجتماعية العميقة والدور الحاسم الذى تلعبه هذه العوامل فى نمو الإنسان وتشكله وبخاصة موقعه الطبيعى من محيطه.. وبيئته الثقافية والتغيرات البطيئة أو العاصفة التى يعرفها هذا المحيط بكل مكوناته..

ومن مثل هذا السياق تبقى صفات الإنسان ثابتة ومن هنا ينبع التشابه والتكرار مادام العنصر البيولوجي حاكما هو نفسه، ويأتى المكتسب الاجتماعى فى مرتبة متأخرة.. ويبدو هذا الإنسان المجرد كتلة من العواطف والمشاعر والانفعالات والأفكار والأوهام الثابتة الجوانية التى تسم تكوينه الوجودى ومن شأن هذه الرؤية أن تبرر الظلم باعتباره فعلا خفيا غامضا نابعا من نزوع إنسانى فطرى دون جذور اجتماعية أو استغلال طبقى ينهب فيه البعض فائض عمل الأغلبية.

يقول يحيى حقى «ما هذا الظلم الذى تشكون منه؟ ما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضى والقناعة وما أسهل ما ينسون».

ولعل «يحيى حقى» برؤيته هذه لما يسميه الرضا بالظلم أن يكون واحدا من المنظرين لفكرة شائعة تقول بأن الخنوع هو خصلة مخلوقة مع الشعب المصرى وبالأمس سألنى صحفى أجنبي: إن كان الشعب المصرى حقا خوافا بطبيعته؟ وهو ما سبق أن قال به «المقريزى حين نقل ما روى عن «عمر بن الخطاب» أنه سأل «كعب الأحبار» عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال:

إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك. وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك».

تشرنق «يحيى حقى» فى نظرته الرومانسية المثالية للعالم باحثا عن انسجام مستحيل يتوافق فيه الظالمون والمظلومون حتى إنه قال عن المحتلين «إخوتنا»، على اعتبار أن الغفران هو صنو هذا الانسجام المنشود فى عالم متنافر الأجزاء محتقن بالآلام

والإنقسام.

ولم تستطع نظرته – رغم صدقها الشخصى – أن تنفذ إلى ما وراء الظاهر من خنوع «النمل» ومذلته وتشابهات الرمل وتكراره كما وصف هو الشعب. ولم أعثر أبدا من أعمال «يحيى حقى» عن كتابة تتعلق بانتفاضة فبراير ١٩٤٦ التى اندلعت بعد كتابة روايته تلك بسنوات قليلة وتحول «جيش النمل» إلى جيش تمرد وعصيان ضد المحتل والقصر وكبار الملاك، وتراجع الذل الذي حمله الخصب معه إلى مصر كما قال «كعب الأحبار» .. وتلونت مياه النيل حينها بدماء قتلى مذبحة كوبرى عباس وامتلأت السجون بالمعتقلين واندلع الغضب فى كل مكان.

ورغم العذوبة والطيبة الصافية التى فاتها أن تلحظ فى الطبيعة تنوع الورد واختلافها ونصاعة ألوانها وتباينها الذى يهزم التكرار فقد بدا عطف «يحيى حقى» على الجماهير منطويا على الإزدراء والشفقة التى تعيد إلى الأذهان تعالى الأتراك المعروف على الفلاحين المصريين، على اعتبار أن الأتراك كانوا حكاما والفلاحين محكومين. يقول الكاتب «حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه.

وحين وقفت الباخرة لدى عودة بطله «إسماعيل» إلى مصر بعد أن درس الطب فى أوروبا «أصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل يهاجمها».. إنها الشفقة الممزوجة بالقرف.

ويقول «إسماعيل» لاحقا فى صيغة النداء الملتاعة مخاطبا هذا الجيش البائس ، ناسيا أن ثمة أيضا فرادة من القدرة على الإيذاء:

«تعالوا جميعا إلى .. فيكم من آذاني، ومن كذب على ومن غشني، ولكن رغم هذا ما يزال فى قلبى وكان لقذارتكم وجهلكم وإنحطاطكم. فأنتم منى وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحي. أنا ابن هذا الميدان لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد كان إعزازى لكم أقوى وأشد».

فهل يمكن أن يمنح إنسان كل هذا الحب المشبوب إلى كتلة غائمة هى جيش النمل؟ أم أن ثمة أشياء وأشياء تميز كل منها عن بعضها البعض تجعل للمحبة عينين ترى بهما إنسانية كل فرد على حدة.

أما الوجه الآخر لهذه النظرة المتعالية الممزوجة بالشفقة والاحتقار فى آن فهو القول

بارستقراطية الطبيعة، وهى فلسفة يروج لها المستفيدون من انقسام المجتمعات ومنها المجتمع المصرى بين قلة فاحشة الثراء وأغلبية فقيرة، وبينهما طبقة وسطى مهددة فى كل لحظة بالانحدار وتكافح بأيديها وأسنانها لتبقى مستورة.

فمن المستفيد؟ طبعا هم أصحاب الثروات الهائلة الذين يرون أن الغنى يستحق غناه وأن الفقير يستحق فقره، وأن عدم المساواة بين البشر هو الوضع الطبيعي، فالطبيعة كما تقول هذه الفلسفة نخبوية لأنها تنتقى الأقوى والأجمل ومن ثم الأصلح فتتوجه على صعيد كل المخلوقات، والبشر هم أيضا مخلوقات الله تصطفى منهم الطبيعة الأفضل وهؤلاء المحظوظون المنتخبون من الطبيعة أو حتى من الله سبحانه هم عادة الأقلية بينما تظل الأكثرية الساحقة من الناس هى الجمهور هى «السفلة» على حد تعبير «شوبنهور» أو جيش النمل الذى أشفق عليه «يحيى حقى» ونذره للتكرار والتشابه ولكنه بدوره اصطفى منه بطله.

تزدهر هذه الفلسفة فى أيامنا السوداء هذه وتتسلل إلى القلوب والعقول.. ولكن مروجيها ينسون شيئا جوهريا ألا وهو أن الإنسان قد تميز عن كل المخلوقات بالوعى .. ولذا فإن العقل النقدى يفند هذه الفلسفة وهو يفككها ويعيدها إلى جذورها الاجتماعية ويزرعها فى قلب المصالح التى خرجت هى تعبيرا عنها، ويحتمى العقل النقدى فى هذه العملية طويلة المدى بوعى متزايد للجماهير العاملة بحقوقها ومصالحها، وعى يبتكر الناس عبر فرادة كل إنسان فهم أشكالاً متباينة للإفصاح عنه، وابتداع صور للكفاح رافضة أى منطق يقول إن الله قد وزع الأرزاق بهذه الطريقة حتى لو قال بذلك بعض الشيوخ ممن يستفيدون من الانقسام فهو سبحانه لا يرضى بأن تعيش ملايين فى هذه الفاقة فى ظل وفرة هائلة من الثروة ، فهو الله الذى خلقنا جميعا من نفس واحدة.

تاريخيا كان التنميط والنزعة النخبوية كوجه آخر له هما الأب والأم الشرعيان للفاشية والنازية والعنصرية والصهيونية، إذ تتأسى كل هذه الفلسفات على فكرة تفوق جنس وانحطاط والاجناس الأخرى. وقد كان الإحياء المنظم لفلسفة «نيتشة» التى أقامت عليها النازية خيمتها الفكرية مقدمة لصعود «هتلر» على أساس التفوق العرقى للجنس الآري، وهى المنظومة التى نقلت عنها بهذه الطريقة أو تلك حركات عنصرية وقومية

متعصبة فى كثير من أنحاء العالم مفرداتها الإيديولوجية، وقد أخذت هذه الحركات تستعيد عافيتها مؤخرا بعد أن كانت الفاشية قد تلقت هزيمة ماحقة فى الحرب العالمية الثانية، وهى استعادة تتواكب مع تحول الرأسمالية العالمية مجددا إلى الاستعمار العسكري، ودخولها إلى مرحلة العولمة التى يصفها البعض بأنها مرحلة ما بعد الأمبريالية.. التى تنتعش فى ظلها العنصرية الصهيونية على أرض فلسطين وتبتلع الأرض وتقتلع الزرع وتسحق البشر وباسم وعد إلهى للشعب المختار، وهو الوعد المزعوم الذى تتستر به المصالح الاستعمارية التى تحميها إسرائيل.

وفى هذه الطاحونة نفسها تصب عمليات إحياء النزعات الدينية الرجعية فى كل الديانات سماوية وأرضية، وتفتح الباب واسعا فى البلدان المتعددة الديانات والأعراق للصراع الطائفى والعرقي، فضلا عن أنها تصلح ملاذا للجماهير البائسة الجائعة والتى تجد فيها هروبا من التعاسة الواقعية على أمل الحياة الأفضل فى الآخرة، أى أنها تنعش فى اليائسين رغبة عارمة فى الخلاص بالموت، بدلا من الخلاص بالحياة.. والخلاص بالحياة يعنى قبل أى شيء رعاية موهبة الحياة والدفاع عنها ضد كل موت، خاصة أن أيام الربيع التى نعيشها الآن تمنحنا فيضا من الألوان وردا وأشجاراً يدعونا كلها للتأمل فيما كتبته عن الورد فى أول هذه المقال، وعن معنى التنوع والفرادة والعالم الذى نحن جميعا مدعوون لصنعه على أساس منها، فلسنا نسخا مكرورة وشائهة من بعضنا البعض، وليس بيننا من هو «طبيعيا» وبيولوجيا أرقى وأفضل من الباقين فالفرادة مخلوقة معنا تماما كما الورد، أما الرقى والتفوق فهو كدح وعمل من شروط عادلة.

إنه أوان الورد الذى يدعونى للتأمل من كل هذه المعانى والأفكار ولكننى لا أقول مع «سعاد حسنى» إن الجو بديع قفل لى على كل المواضيع .. فالورود تتفتح.

المحررة

دراسة

زيف الصورة الذهنية:
قراءة فى تحولات الشخصية المصرية

وليد علاء الدين

لعله من الواجب قبل الخوض فى استعراض مداخلتى التالية حول (الشخصية المصرية) أن أوضح أننى ما كنت لأهتم بهذا الأمر أو أفكر فيه لو لم أكن منتمياً كلية إلى (مصر): هذا الكيان الذى نصطلح على تسميته بالوطن، والذى أحتار دائماً فى أمر ذلك الشعور الدافئ الذى يربطنى به، رغم أنه لا يحقق لى ولكثيرين غيرى الحد الأدنى من شروط المواطنة الكريمة.

ولا أجد لذلك من أسباب موضوعية سوى الوعى بأن الوطن ليس (أحوال الوطن)، وأنه ينبغى علينا قبل أن ننساق وراء مشاعرنا أن ندرك أن سبب انتمائنا إلى الأوطان مهما بدت قاسية، هو إدراكنا الخفى أن الوطن لا يتحمل تبعات ممارسات القلة التى تدير أحواله، مهما طال بقاء هذه الثلة وزاد فسادها.

وأضيف على ذلك أننى لا أنكر على (الشخصية المصرية) تمتعها بالعديد من الصفات الحميدة، كما لا أنكر أبداً ما للمصرى من تراث عريق ومتنوع، ولا أنكر كذلك قدرته - أى المصرى - على تحمل ما قد تنوء بحمله الجبال من ظلم وقهر واضطهاد وفساد منذ أقدم العصور وحتى الآن.

لا أنكر كل ذلك من أمور كفيلة بأن تثير فى المصرى الكثير من الشعور

بالفخر والعزة لأنه مصرى (بهذا المعنى)، إلا أن ما ألفت النظر إليه هنا هو ذلك التحول الذى طرأ على نمط منتشر من أنماط الشخصية المصرية - وسيكون هذا النمط هو مقصود التحليل فيما سيلى من المقال - يتجلى فيه الفخر والاعتزاز بصورة مرضية بدا أن الشفاء منهما فى حاجة إلى وقفة وعى عام ونظرة موضوعية قبل فوات الأوان.

وسبب ذلك - فى رأيى - أن ما يمتلكه المصرى المعاصر من إحساس بالفخر والاعتزاز بمصريته ليس نابعاً عن فهم وإدراك لحقائق الأمور، بل هو نتيجة لعملية مستمرة مورست عليه منذ سنواته المبكرة، تم (حشوه) خلالها بأفكار منزوعة من سياقها - حتى لا نقول مغلوطة - هذه الأفكار وإن كانت حقائق ، أو جزء كبير منها هو حقائق، فهى بنزعها من سياقها العام كونت تصوراً مشوهاً وناقصاً ومفتقراً للحياة، جعلها أبراجاً عالية فارهة، إلا أنها عرضة دائماً للسقوط عند أول نفخة ريح، لأنها قائمة على سطح الأرض دونما أعمدة أو أساس.

فالشخص (المصرى) المعاصر ينشأ منذ نعومة أظفاره فى بيئة تتولى عملية تغذيته بأفكار حول تفوقه وتميزه، وتمنحه قشوراً باهتة حول مجده التليد وحضارته القديمة التى لم تر الدنيا حضارة مثلها، وتغلق الباب أمام تعرفه على الآخر بصورة سليمة، ليصبح لا أحد خارج مصر، لا حضارة ولا فن ولا سياسة ولا أدب ولا... ولا..... ليكبر المصرى وتكبر معه أفكاره المتوهمة حول ذاته وشخصيته، تلك الأوهام التى لا يمتلك القدرة على مقاربتها بشكل واع - لكى لا نقول علمى أو منهجى - وبالتالى لا يمكنه التواؤم معها أو تمثلها أفعالا وخصالاً تدفعه نحو الأمام، ناهيك عن صدمة اكتشافه أن ثمة آخرين كثر خارج (مصره) ولهم قدرات تفوق أو تقل أو تساوى ما له من قدرات.

تراكم هذه التصورات فى ذهن المصرى من شأنه أن جعل منه من ناحية: شخصية مثيرة لنفور الآخر إلى حد ما، قادرة على تحريك مشاعر الكراهية فى نفسه بما تحمله من تصور فوقى متوهم حول ذاتها وتصور دونى متوهم حول الآخرين، ومن ناحية أخرى جعلها شخصية سهلة الانقياد وراء ما يستطيع أن يدغدغ تلك المشاعر فيها، إضافة إلى أنها أصبحت شخصية معرضة للإحباط عند أول محك عملى أو مقارنة واقعية تختبر مقومات العزة والفخر لديها.

هذا الإحباط هو التوصيف الأقرب للحالة التى تحدث عند مغادرة الشخصية المصرية لمحيطها الذى يحميها، ويشاركها أوهامها الذاتية المتضخمة: أى مصر نفسها ، حيث تسمح شروط هذا المحيط بأن تظل هذه الشخصية هائمة فى فراغ تخيلاتها حول عظمة المصرى وقدراته الخارقة التى حتماً تفوق الآخرين فى كل شيء بداية من الجنس والفحولة الجنسية وانتهاء بالفهلوة والقدرة على صنع المعجزات.

ولأن حديثى هنا سوف يقتصر على الشخصية المصرية فى تفاعلاتها خارج محيطها المصرى، وهو الأمر الذى تابعته بحرص طوال فترة إقامتى خارج مصر، فإننى اكتفى بالإشارة إلى أن تصورى النظرى يرى أن الفكرة نفسها تنطبق داخل المحيط المصري، ولكن الفارق الجوهرى فى رأيى أنها تتم فى إطار قاعدة (الأولوية بين أكفاء)، وهو مصطلح استخدمه الدكتور جمال حمدان فى إطار حديثه عن أمر آخر، إلا أننى وجدته يناسب تماماً ما أود قوله فى وصف الفارق بين شعور الشخصية داخل محيطها المصري، وخارجه، لتأكيد وطأة ما تحدثه صدمة المواجهة/ الاحتكاك بما هو خارج هذا المحيط أو بمن هم خارجه (الآخر غير المصرى).

من الجدير بالذكر أن نتائج هذه المواجهة لا تكون سلبية على طول الخط، بل إنها أحياناً تخلق قوة دافعة داخل الشخص، فيعيد النظر فى أمر ذاته ويقيمها وفقاً لمعايير العصر، ويستدعى من تركيبته جواهرها فيثبت جدارة وتفوقاً ونجاحاً، ولكن يحدث هذا فقط لدى هؤلاء الذين يمتلكون القدر من الوعى اللازم للاحتفاظ بتوازنهم واستدراك الأمر وتغيير الاتجاه، عند التعرض للصدمة التى نعنيها: صدمة اكتشاف زيف الفكرة عند المقارنة أو الاحتكاك أو الآخر، وهؤلاء للأسف - مع وطأة التعبئة الفارغة - يمثلون القلة، ومن هذه القلة نرى هؤلاء المصريين الذين يتفوقون فى (الخارج) إلى حد إظهار العبقرية.

ولكن لفساد النموذج العام، فإن قدرة هذه القلة على تحويل الإحباط إلى نجاح يتم نسبة أو الصاقه بالوهم العام حول عبقرية الشخصية المصرية على طول الخط دون قراءة متأنية أو منهجية لأسباب تفوق هؤلاء التى لو تمت قراءتها بشكل منهجى موضوعى لكانت مؤشرات فعلية على الخلل المفزع الذى تمر به تلك الشخصية، ولأمكن لنا أن نحلل أسباب هذا النجاح لنحولها إلى نموذج يمكن إتباعه على المدى الطويل لنجعل من الاستثناء قاعدة.

باستثناء هذه القلة فإن المواجهة التى أشرنا إليها تنتج حالات كثيرة يمكن أن نقتبص منها ثلاث شخصيات باعتبارها نماذج بارزة، بين هذه النماذج يمكن تصنيف أطياف كثيرة ومتنوعة يمتاز كل طيف عن الآخر بأمور جوهرية، إلا أن جلهم وإن بدوا أقل تشاؤما، ربما يقعون فى واحد من هذه التصنيفات الثلاثة أو يدورون فى فلكها، باعتبار أن تصنيف القلة الأول هو الناجى الذى علينا أن نسعى لزيادة رقعته ومساحته بشتى الطرق الممكنة.

وفيما يلى محاولة لتوصيف هذه النماذج، ربما لن تنجح فى الفرار من أسر المبالغة التى يستدعيها عادة الحديث عن أنماط من البشر تعيش بيننا، كما أننى فى البحث الأصلى اتبعها برصد لعدد من الأمثلة العملية على كل منها لتقريب الصورة من ناحية،

ولإزالة أية شبهة للتجنى قد تكون أوقعتنى فيها محاولة صياغة الأفكار بالكلمات من ناحية أخري، وهو أمر لن يتسع المجال له هنا.

شخصية المحتال:

أو م ننزاوية نظر أخرى شخصية الـ (Surviver) الذى تنحصر مهمته فى أن يبقى حياً بعد انقضاء حادثة ما، وهو تحول يصيب الشخص فور اكتشافه أنه لا يمتلك من القدرات العملية أو المقومات الحقيقية ما يتفق والصورة الذهنية التى يمتلكها حول نفسه، ولكنه لا يستطيع نقل هذه المعلومة لتصبح معرفة ترقى إلى مستوى الوعى ليعمل من خلالها على تجاوز أزمته ، فيقوم بتدريب نفسه والتعلم والتقاط المهارات الكفيلة بانخراطه على الأقل فى الحياة بغض النظر عن أن يصبح مميزاً أو غير ذلك.

تجد ذلك الشخص يركز كل مهارته وقدراته فى المعارضة الفارغة أو الإصرار المبالغ فيه على صحة ما يقوم به من أعمال، أو رفض الآخر بحماقة واعتباره أقل منزلة منه، وهو يوجه كل معرفته فى اتجاه التحايل على ما يعترضه من أمور، فقط لتجاوزها وليس لاحتوائها، والتجاوز هذا فى المعنى الذى أقصده هو عبور الأمر، بينما يشمل الاحتواء عبور الأمر وتحويله إلى معرفة مكتسبة ضمن تركيبة الشخصية.

ومعنى ذلك أيضاً أن هذا الشخص لا يضيف إلى شخصيته مهارة جديدة بتحايله على الخروج من المأزق ، فهو يخرج من المأزق بالحيلة سطحياً كما مر به، دون أن يضيف إلى الخبرات الإيجابية لديه جديداً، بل يزيد من رصيد قدرته على التحايل، فتتأكد لديه الصورة الذهنية الزائفة عن كونه مميزاً وقادراً على تجاوز المشكلات بالفهلوة.

شخصية (الكامن)

وهو الشخص الذى يفضل عدم المنافسة داخل الميدان، ولكنه لا ينسحب منه، ويبقى منطوياً على ذاته.

وهو لم ينسحب لأنه لم يعترف بفساد الصورة الذهنية التى عاش عليها، ولم يعترف بأسباب فشله الحقيقية، وإنما هو انطواء يتضمن قدراً من الغضب على الدنيا التى لا تعترف بالعبقرية ولا تعطى لكل ذى حق حقه، وتكيل بمكاييل غير عادلة، وغير ذلك من تصورات.

هذه الشخصية المنطوية لا تنسحب كما أسلفنا من الميدان، وتظل كامنة فى أى مكان يتوفر لها، بمهارات معطلة ذاتياً، (أى أنه لا يخلو من مهارات إلا أنها تعطلت فى إطار نمط الكمون الذى اختاره لنفسه)، ونفسية معتلة تلعن الزمن والظروف، وتهزأ من كل

آخر قادر وفاعل، ولا تعترف بمهارة هذا الآخر بل تعللها بجور الزمن الذى لا يفرق بين الرجال.

هذا النموذج : الكامن، يتضمن أطيافاً عدة مثله مثل بقية النماذج، فتارة تراه شخصاً متعالياً على الآخر تماماً، لا يكاد يراه، إذا كانت الظروف تسمح له بذلك، وهو بهذا يعوض ما يشعر به من صدمة المقارنة، وتارة تراه شخصاً متملقاً ومداهناً للآخر بشكل مبالغ فيه، يضمر فى نفسه رفضاً شديداً لهذا الآخر الذى تضطره الظروف إلى مداهنته وفق مبدأ شهير: (إن كان لك عند الكلب شىء قل له يا سيدى)، كما يمكن أن تجده شخصاً لا يرغب فى أن يشعر بوجوده أحد، يمضى ساعاته وأيامه فى ممارسة رد الفعل وتنسيقه وليس الفعل والمبادرة،...

وهكذا.

شخصية (المنسحب):

وهو الشخص الذى تصعقه نتيجة المقارنة بين الصورة الذهنية التى عاش عليها طوال حياته، وبين القدرات الواقعية لهذه الصورة على محك الفعل.

لسبب أو لآخر تختار هذه الشخصية أن تنسحب فوراً من خوض المعركة، ربما لأنه تمتلك (نصف وعى)، يسمح لها بتعرية (نصف الحقيقة)، ولا يسمح لها بالقدرة على تحويل هذه المعرفة إلى قوة دافعة، فتزداد وطأة الصدمة عليها، لتصبح صدمتين: صدمة اكتشاف الشخص زيف الصورة الذهنية، وصدمة تصوره لما يتطلبه تغييرها من جهد لا يستطيع بذله، فتكون النتيجة الانسحاب الكامل، فلا هو تمكن من أن يصبح (المحتال) كالنموذج الأول لأن القدر الذى يملكه من الوعى يحول بينه وبين لعب هذا الدور باحتراف، ولا هو أمكنه الكمون كالشخصية الثانية للسبب نفسه (نصف الوعى) فيكون الخيار الأقرب هو الانسحاب.

وعادة ما تكون الصورة المثالية لهذا الانسحاب العودة إلى المحيط الذى يشاركه خيالاته عن العبقرية ولكن للأسف فإن هذا النموذج يظل ما بقى له من حياة مشروخاً، لا هو حلق فى أفق مغادرة الوهم، ولا هو تمكن من العودة إلى حالة الاستقرار فى محيطه الأول.

ويمكن ملاحظة هذا الأمر بكثافة على فئات من العائدين من العمل فى الغرب أو فى الخليج لعدم قدرتهم على النجاح وفقاً لمثال القلة (الناجية) أو الانخراط وفقاً لمبادئ الشخصية الأولى (المحتال) أو الكمون كما يحدث مع الشخصية الثانية (الكامن).

ويتبدى ذلك الانسحاب فى أنماط السلوك التى يتبعها هؤلاء فى الحياة بعد عودتهم إلى

محيطهم الأصلى ، وعادة ما تصيبهم الأمراض العضوية الناتجة عن حمل نفسى رهيب، أو يقضون بعد سنوات قليلة من العودة إلى محيطهم، أو ينخرطون فى أمر المتعصبين، سواء كان هذا التعصب دينياً أو فكرياً لأنهم يرون فى العودة إلى الأصول والماضى وإلغاء الآخر ومصادرته ومحاولة تنميطه بنمطهم أو إقصائه من منظومة التفكير ما يريحهم من عذاب هذا الشرخ الذى أصابهم إلى غير التئام، كما أن هذا الانتماء إلى الماضى قد يظهر فى أشكال من النكوص النفسى والدخول فى حالات نفسية مرضية.

●●

قبل الانتقال إلى محاولة تقصى إرهاصات هذه التحولات فى التاريخ، أجد واجباً التأكيد على أن توصيف النماذج الثلاثة السابقة لا يعنى أنها النماذج الوحيدة أو أنها تتسع لتشمل جميع المصريين، إلا أنها كما رأيتها تستوعب عدداً كبيراً منهم، وإن لم يعن ذلك انطباق جميع التفاصيل النظرية لكل واحدة على كل شخصية مصرية، فإن هناك إطيافاً كثيرة ومتعددة كما ذكرت سابقاً تتداخل مع هذه النماذج وتتقاطع.

كما أن تتبع هذه الصفات لا ينفى أو يتعارض بحال مع أن المصرى بالفعل مميز، وأن من شأن هذه الأمور أن تعطل ميزاته وقدراته ومهاراته الخاصة، تلك المهارات والقدرات والخبرات التى لا جدال فى كونه قد اكتسبها بفعل التجارب والمحن والظروف التى مر بها – مثله فى ذلك مثل باقى الشعوب – إلا أن التجارب فى حالته امتدت نسبياً فى الزمن كما كانت قاسية وغزيرة ومتنوعة، ولفرط قسوتها تلك فإنها كانت كفيلة بتحويله إلى شخصية منكسرة وفاقدة للثقة، وربما أن رغبته فى مقاومة هذا الانكسار ساهمت بشكل أو بآخر مع صحبة أخرى من العوامل فى تحوله إلى تلك الأنماط محتمياً من قسوة الانكسار وصدمته بقشرة زائفة ساهم فى تكريسها مناخ عام وممارسات توالت على مر التاريخ.

كما ينبغى التأكيد على أن هذه الملامح لا يمكن أن تكون مقتصرة على المصريين بعينهم دون شعوب الأرض، وإلا أنزلقنا فى فخ الوهم من زاوية أخرى، فهى لابد موجودة بشكل أو بآخر ولأسباب ومواضعات مختلفة أو متشابهة لدى كثير من شعوب العالم، وربما أن عارض الفخر الزائف هذا عامل مشترك بين جميع الشعوب العربية تحديداً، وهو ما يلمسه المغترب فى بلد يضم جميع الجنسيات العربية، فالعراقى مثلاً يعتقد أنه صاحب أقدم حضارة وأن اكتشاف العراقى القديم للعجلة يعنى أنهم أصحاب أول حركة فى العالم، وينظر إلى الجنسيات الأخرى من العرب نظرة دونية أو حاقدة أو ناقدة، واليمنى يرى أنه أصل اللغة وبالتالى الحضارة، ولا يقل فى ذلك اللبنانى والسورى والمغربي، ولكل أسبابه وأوهامه ، بينما الشخصية الخليجية تمارس الآن نوعاً من التعالى الشكلى

على الجميع، ولكن ليس داخلاً فى إطار اهتمامى - على الأقل الآن - تقصى هذه الملامح فى شخصية أخرى غير المصرية.

●●

رؤية تاريخية

لعله من الصعوبة بمكان أن نحدد تاريخ بداية الممارسات التى انتهت بالشخصية المصرية إلى هذا الوضع، أو هددت بتفشيه، إلا أن البعض يعيد نشوء فكرة (القومية المصرية) إلى فترة وجود الحملة الفرنسية، والمقاومة الشعبية لها، وما حدث كذلك من مقاومة الشعب للمماليك وللوالى العثمانى إلى أن وقع الاختيار على محمد علي.

وربما كان الرافعى فى كتابه (تاريخ الحركة القومية) هو أول من ربط بين مقاومة المصريين للحملة الفرنسية وما أعقبها حتى اختيار محمد علي، وبين ولادة الشعور بالقومية المصرية، فقد أشار إلى أن «نابليون قد استثار الروح القومية المصرية، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد»(١).

بينما منح لويس عوض فكرة القومية المصرية ميلاداً آخر(٢)، حين ربطها بالمذكرة التى رفعها (المعلم يعقوب المصري) إلى الإنجليز، والتى تضمنت مطالبة بحكومة مصرية مستقلة، معتبراً بذلك أن (يعقوب) - الذى كان يعمل لصالح الفرنسيين وقتها فمنحوه لقب جنرال، والذى تدور حول شخصية شكوك كثيرة - هو صاحب فكرة القومية المصرية.

وفى كلتا الحالتين فإن ما اعتبره البعض بدء إحساس المصريين بذاتهم، هذا الإحساس الذى سوف ينمو بعد ذلك ليتخذ أحياناً أشكالاً غير صحية، لم يكن نابعاً من إيمان المصريين بذلك، أو نتاجاً حتمياً لممارسة المصريين العملية للحياة ورؤيتهم لجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية فالواضح أن ميلاد هذه الحركة - إذا جاز استعمال هذا المصطلح لوصفها- جاء باعتبارها بديلاً رأى الفرنسيون أنه الأفضل لمصر بعد رحيلهم عنها لكى لا تستفيد من رحيلهم قوة منافسة لهم، فإذا كان الرحيل ضرورة، فلتكن إذن (مصر للمصريين).

كما أن الإشادة بعظمة مصر وحضارتها التى استخدمها نابليون فى خطاباته للشعب المصرى يمكن أن نعتبرها من قبيل مغازلة هذا الشعب لاستقطابه وتحييده وكسر شوكة المقاومة المتوقعة منه.

وقد أشار الدكتور أحمد على المجدوب فى كتابه (الوهم والحقيقة فى الفكر المصرى

الحديث) إلى أن إعجاب الرافعى بنابليون يعد من قبيل التعصب لفكرة القومية المصرية «إلى الحد الذى يجعل الرافعى يغفر لهذا المحتل كل جرائمه وآثامه فى حق مصر وأبنائها لمجرد كلمات لا قيمة لها أثبتت الأحداث التى سبقتها والتى لحقتها كذبها».

أما ما تضمنته مذكرة (الجنرال يعقوب) الذى نسب إليه لويس عوض فكرة القومية المصرية، فإنه يقدم دليلاً قاطعاً على أن هذه الدعوة ليست نتيجة طبيعية لممارسة عملية واعية، يقول فى تلك المذكرة: «إن إنشاء هذه الحكومة لن يكون قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اخمار المبادئ الفلسفية المتصارعة، ولكن تغييراً تجريه قوة قاهرة على حياة قوم وادعين جهلاء يكادون لا يعرفون فى الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة، والخوف»(٣) ويقول: «إن طول استعباد المصريين تحت يد الترك والمماليك قد حرم مصر من النور الكافى لتكوين رأى عام بصير يمكن أن يخرج منه عمل سياسى لتغيير نظام الحكم».

وبغض النظر عما تم إطلاقه على (الجنرال يعقوب) من صفات الخيانة والعمالة وغيرها (انظر كتاب الدكتور أحمد على المجدوب: الوهم والحقيقة فى الفكر المصرى الحديث)، لأنها فى حاجة إلى نظر وفحص على مستويات أخرى فإننا نجد فى مذكرته التى استند إليها لويس عوض فى تنصيبه أباً لفكرة القومية المصرية إشارات واضحة إلى ما أوردناه سابقاً من صفات الشخصية المصرية، فالمذكرة عبارة عن اجتهاد (فهلوى) يهدف إلى إقناع الطرف الآخر بما يرغب فيه، فلأنه يخاطب الإنجليز فهو يرى أن «أيه حكومة تحكم مصر تفضل حكومة الترك» ويقنع الإنجليز بأنه «أنضم إلى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية فى تخفيف آلام مواطنيه» وأن «الفرنسيين خدعوهم»، ولهذا «فالمصريون الآن يحتقرون الفرنسيين احتقارهم للترك فيما مضى»، مؤكدا أن «الفرنسيين جعلوه يعتقد أن بلادهم أقوى بلاد أوربا» وأنه «لم يكن يعرف شيئاً عما لإنجلترا من قوة بحرية عظيمة»، ومع ذلك فقد كان يعلم «أنه بغير تأييد بريطانيا العظمى فإن رغبته فى أن يرى وطنه يتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل». ثم يؤكد يعقوب أنه لا داعى للخوف من دفاع المصريين عن استقلالهم، لأنهم لن يتمكنوا من توجيه هذا الدفاع ضد الأوربيين إلا بعد وقت طويل، عندما تصبح القوة القومية منظمة وتكون قد اكتسبت الاحترام، إلا أن هذا الدفاع (القومى) سيكون ضد الترك والمماليك، وفى هذه الحالة «نعتقد أن الدول الأوربية يمكنها أن ترد عنهم كل عدوان يقع على مصر، وبالإضافة إلى هذا ففى إمكان المصريين أن يستخدموا على حسابهم قوة أجنبية مساعدة مؤقتة يتراوح عددها بين ١٢ ألف رجل و١٥ ألف رجل يكفون وزيادة لإيقاف الترك عند الصحراء ولتحطيم المماليك فى داخل مصر، وستصبح هذه القوة نواة القومية

المصرية»(٤) (تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الأول).

من الواضح إذن أن فكرة القومية المصرية لم تكن إلا نتاج صراع قوتين كبيرتين على مصر، الفرنسيون من جهة والإنجليز من جهة أخرى، ولم يكتب لهذه الفكرة أن تتحقق أو أريد لها ألا تتحقق، إلا أنها عاشت فى ثنايا كل الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر بعد ذلك بدءاً من محمد على الذى أفاد كثيراً منها ومن مثيلتها: القومية العربية، فى التكريس لحركته الاستقلالية عن الباب العالي، حيث إن الأولى كانت تضمن له حكم مصر حكماً مستقلاً بينما الأخرى تضمن له حكم الأقاليم العربية التابعة للخلافة بالإضافة إلى مصر.

ولا داعى هنا للخوض فى تفاصيل المخططات والمؤامرات التى كانت تحاك فى ذلك الوقت من أطرافها الفاعلة أو الفرعية، لأن الهدف هو قراءة آثار تلك السياسات على نمو الشخصية المصرية، وما تم تمريره إلى بنائها الثقافى من أفكار لكسبها أداة لهذا الطرف أو ذلك فيما يتم التخطيط له.

وتحفل الكتابات التى تناولت تاريخ مصر فى تلك الفترة بإشارات تفيد بأن المصريين لم تكن لديهم أي ارتباطات نفسية بتاريخ مصر القديم تدعوهم إلى تقييم ذواتهم على أساسه، ومن أهم هذه الإشارات ما ورد فى كتاب (وصف مصر) الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية نفسها التى يبدأ الحديث عن القومية من عندها، وكذلك ما أوردناه سابقاً من وصف الجنرال يعقوب المصرى المصريين بأنهم «وادعين جهلاء يكادون لا يعرفون فى الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة، والخوف».

وإذا كان هذا الاعتراف السابق بعدم وجود ارتباطات نفسية يتطلب قدراً ما من الاعتراف بجهل العامة من المصريين حتى ذلك الوقت بتاريخهم وحضارتهم بعيداً عن الخوض فى أسباب هذا الجهل التى لا يخفى معظمها، إلا أن غياب هذه الارتباطات النفسية يصلح كذلك أن يكون مؤشراً للحكم على الشخصية المصرية (آنذاك) بالسوية والاعتدال، فالمصرى إذا لم يكن يتحرك فيما أورده التاريخ حوله من ثورات على الظلم والاستغلال من دوافع مغلقة على تصور وهمى لذاته بل كان ينطلق من مبادئ ومشاعر إنسانية عامة دافعاً لظلم أو مطالباً بحق مغتصب فى أرض أو رزق أو كرامة، أو مطالباً بحرية، وكلها أمور تمنح حركته عبر التاريخ قدراً من النبل يختفى إذا ما حصرنا مبررات هذا التحركات فى رغبة ضيقة الأفق يحركها شعور بأفضلية متوهمة جنسية كانت أو عرقية أو حضارية أو غيرها من أمور.

فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ثار الجيش على الملك فاروق الأول بقيادة مجموعة الضباط الأحرار، وفى عام ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية المصرية، وكان اللواء محمد نجيب هو أول

رئيس جمهورية مصري، وفى أبريل عام ١٩٥٤ أصبح البكباشى جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء، وفى نوفمبر من العام نفسه أصبحت كل السلطات فى يد عبد الناصر الذى تم انتخابه رسمياً رئيساً للبلاد فى يوليو ١٩٥٦.

جاءت الثورة المصرية، قبل أربع سنوات من رحيل المستعمر الإنجليزى - لتصبح - كما يؤرخ لها - بداية الوعى وبداية تكون الشخصية المصرية المعاصرة، وهى إنجاز لا ينبغى التقليل من شأنه، ولكن لا يعنى ذلك أن نغفل عن التنبيه إلى ما أسهمت فيه السياسة التى جاءت بها هذه الثورة - بنوايا قد تكون حسنة - فى تصعيد منحنى تطور الخلل الذى أصاب الشخصية المصرية فى هذا الاتجاه.

ولعل الزعيم الراحل جمال عبد الناصر عندما وجه اهتمامه إلى إعادة بناء الشخصية المصرية وفق الشعار الشهير للثورة (ارفع زأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد) لم يكن يتخيل إطلاقاً أن محاولات تنفيذ رغبته تلك سوف تصب - عمداً أو مصادفة - فى التكريس لما أشرنا إلى نشوئه تواكباً مع الدعوة إلى القومية المصرية، وأن هذه الرغبة سوف يساء استغلالها - بحسن أو بسوء نية - عبر السنوات اللاحقة لتضع اللبنات الأكثر صلابة فى التحول الذى أصاب الشخصية المصرية لتصبح المحصلة النهائية شخصية تعانى من تورم فى اعتزازها بمصريتها دون معرفة بالحد الأدنى لأسباب هذا الاعتزاز، ودون أن تمتلك مقومات تحويل هذا الاعتزاز المرضى إلى واقع حقيقى.

وربما تفيد فى تأكيد فرضيتنا هذه قراءة لمفردات الخطاب (الإرشادى) فى الفترة الناصرية (الإعلامى) بعد ذلك إلى عصرنا الحاضر، والممارسات التى تمت على الصعيدين الاجتماعى والسياسى منذ الثورة وحتى الآن.

ولا داعى لأن أذكر هنا بأن هذه القراءة لا تعنى أبداً نفى ما قد تتضمنه أى من الفترات التاريخية التى يرد ذكرها من إيجابيات أو إنجازات أوحتى معجزات، ولكنها - مرة أخرى - تحاول أن تتلمس تأثير الممارسات التى تمت فى تلك الفترات على نمو الشخصية المصرية، وما تم تمريره إلى بنائها الثقافى من أفكار.

اختراق النموذج المغلق

ولأن المجال هنا لا يسمح بنشر جميع محاور البحث التى تتبعنا فيها أبرز أشكال الممارسات التى رأينا أنها ساهمت فى الوصول بالمشكلة إلى ذروتها فى فترة الخمسين سنة الماضية على الأقل كما تتبعنا خلالها أيضا أعراض تلك الشخصيات الثلاثة لدى النخبة من المثقفين والكتاب المصريين من خلال كتاباتهم، ولدى النظام من خلال ممارساته، وربما سنحت الفرصة لنشرها فيما بعد، فإننى حريص على أن أقول أن ما

أثرته من نقاش حول الشخصية المصرية وتحولاتها عند وقوع صدمة الاحتكاك مع الآخر يتسع ليشمل المجتمع المصرى كله نظراً لانهيار السدود المنيعة التى كانت تفرضها مصر حول أنموذجها المغلق الذى تردد فى داخله بحرية مطلقة أفكارها حول العبقرية والريادة والتفرد والتمييز، فلم يعد الخطاب المعد داخلياً هو الخطاب الوحيد المتاح أمام المصرى بعد الانفتاح المذهل الذى أحدثته ثورة التكنولوجيا والفضائيات وأقنية الاتصال، ولم تعد الصدمة الناتجة عن الاحتكاك والمقارنة وبالتالى اكتشاف زيف الأوهام الذاتية وخداع الصورة الذهنية مقصورة على أولئك الذين ينتقلون إلى الآخر فى محيطه، بل أصبحت صدمة عابرة بعد أن صار الفضاء مكشوفاً على آخرين كثيرين يمتلكون خطابات مختلفة متباينة ومتفاوتة فى القوة والضعف.

وفى اعتقادى أن الأزمة الحقيقية تكمن فى المرحلة الحالية التى ينبغى الانتباه إليها وهى مرحلة تلقى الصدمة التى بدأ المجتمع المصرى يتعرض لها بالفعل، دون أن تكون هناك محاولات لتوقع وقياس ردود الأفعال على تلك الصدمة، وبالتالى غياب سيناريوهات متماسكة للتعامل معها، والتجهيز للتحولات المذهلة التى من شأن هذا الانفتاح الصادم أن يحدثها فى طبيعة وتركيبة الشخصية المصرية واضعين فى الاعتبار ما عاشت عليه تلك الشخصية طوال عقود من أوهام التفرد والسبق والريادة.

لذلك فإن الحديث عن شخصيات كالمحتال، والكامن والمنسحب وأطيافها التى تناولناها بالبحث على صعيد انتقال المصرى للعيش فى محيط الآخرين، ينطبق أيضا على المصريين داخل محيطهم الخاص الذى لم يصبح خاصاً بمعنى (منعزل ومغلق) كما كان من قبل، بمعنى آخر لم يعد (تحت السيطرة) كما كان قبل ثورة الفضائيات المذهلة. وهو أمر يمكن أن نعزو إليه ببساطة العديد من أشكال التحول والظواهر الجديدة الوافدة على المجتمع المصرى، والتغير الحادث فى أنماط السلوك لدى الجميع تقريبا، وتحديداً لدى الفئات الأكثر استعداداً للتغيير واكتساب قيم وعادات جديدة كالشباب والمراهقين والبسطاء من عامة الشعب.

هوامش:

١ – عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥، صفحة ٨٨ .

٢ – د.لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، كتاب الهلال، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٩ .

٣ – المرجع السابق صفحة ١٨٩ .

٤ – المرجع السابق .

دراسة

إشكاليات المجتمع المدنى وسبل الحل

حافظ أبو سعده

لقد شهد عقد التسعينيات جملة من التغيرات السياسية والاقتصادية - فرضتها التحولات الإقليمية والدولية - وذلك من قبيل التحول نحو اقتصاد السوق، والتحول الديمقراطي، وارتبط بهذه التغيرات تراجع دور الدولة وبزوغ القطاع الأهلى كفاعل جديد، والذى عرف بالقطاع الثالث إلى جانب الحكومة والقطاع الخاص، وبعد إن كانت مفاهيم الرعاية الاجتماعية والعمل الخيرى من أهم منطلقات هذا القطاع، طرحت مفاهيم جديدة مثل التنمية والمشاركة الشعبية والتمكين والسعى للتأثير على صانعى القرار السياسي، بل وظهرت نظريات جديدة حول العلاقة بين الدولة والمجتمع تقوم على مفهوم انحسار دور الدولة فى المجتمع ومن هذه النظريات والمدارس ما يهتم بما يسمى بمجتمع الشبكات أو مجتمع بلا مركز أو المجتمع متعدد المراكز.

وقد عكست جميع مؤتمرات الأمم المتحدة خلال التسعينيات ابتداء من قمة الأرض مروراً بمؤتمر القاهرة للسكان ومؤتمر المرأة ببكين ومؤتمر القمة الاجتماعية بكوبنهاجن، أهمية دور القطاع الأهلى كشريك فى

التنمية وهذه المؤتمرات تبنت مفهوم الحكم الرشيد بركائزه الثلاث وهي: الدولة والقطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية. كما روجت لما سمى بالثقافة المدنية التى تقوم بالأساس على «احترام قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان، وما يرتبط بذلك من قيم التسامح والحوار وقبول الاختلاف، والمؤسسية، والشفافية والمحاسبة».

ومن مظاهر شيوع الثقافة المدنية النمو الواضح سواء على المستوى الكمى أو النوعى الذى شهده القطاع الأهلى العربى خلال العقدين الأخيرين، فمصر مثلاً بلغ عدد المنظمات الأهلية فيها عام ١٩٩٤ حوالى ١٤,١٦٢ جمعية، ولكن الان يبلغ عددها ١٦,٦٠٠ جمعية، أما المنظمات الحقوقية العربية فقد ارتفع عددها من منظمة واحدة وهى المنظمة العربية لحقوق الإنسان وذلك فى عام ١٩٨٣ ليصل إلى ٢٦ منظمة أو مؤسسة مدنية تتبنى قضايا حقوق الإنسان المختلفة، ووصل عدد هذه الجمعيات فى الأردن وفق تقديرات عام ٢٠٠٠ إلى ٨٣٥ جمعية، وفى تونس ٧٥٦٠ جمعية، وفى الجزائر ٨٤٢ جمعية، وفى السودان ٢٤٦ منظمة، وفى فلسطين ٩٢٦ منظمة، وفى لبنان ١٩٤ هيئة وجمعية، وفى موريتانيا ٦٠٠ منظمة، وفى اليمن ٢٧٨٦ جمعية. وتزداد أهمية هذه الأرقام إذا ما قورنت بما كان عليه الوضع قبل عام ١٩٩٠، ففى السودان مثلاً لم يتجاوز عدد المنظمات حتى عام ١٩٨٩ حوالى ٣٠ منظمة، ولكن فى عام ٢٠٠١ ارتفع إلى ٢٤٦ منظمة، كما أن أغلب الجمعيات الأهلية فى فلسطين قد أنشئت بعد عام ١٩٩٤.

ويدل تنامى أعداد الجمعيات الأهلية على أن هناك حاجة مجتمعية لهذه الجمعيات من ناحية اتساع نشاط ومجال اهتمام العديد من الجمعيات الأهلية لتتجاوز العمل الخيرى وتقديم الخدمات والإعانة إلى الاضطلاع بمهام دفاعية مثل حقوق الإنسان والمرأة والبيئة. وهذه المهام تحمل فى طياتها دورا تغييريا للمواطن والمجتمع ككل، وذلك بالسعى لفرض القيم المشاركة والشفافية وقبول الاخر. كما تتميز الجمعيات الأهلية عن بقية منظمات المجتمع المدنى بأنها أكثر تماساً واتساقا بالطبقات الشعبية والفقراء والمهمشين.

ومن الملاحظ أن توجهات الحكومات العربية قد اتسمت إزاء العمل الأهلى بالازدواجية وغلبت عليها المسحة الانتهازية فمن ناحية أدى الاهتمام الدولى خاصة من قبل منظمات الأمم المتحدة وهيئة التمويل بمشاركة المنظمات الأهلية فى تحقيق أهداف التنمية وأيضاً نجاحها فى سد الفراغ الذى تركته الدولة إلى زيادة اهتمام الدولة بالمنظمات الأهلية، وربما يكون هذا من ضمن دوافع تلك الحكومات لإنشاء العديد من الجمعيات، بيد أن هذا الاهتمام كان انتقائياً بمعنى أن الدعم والمساندة يتم توجيههما للجمعيات التى تتفق مع سياسة الدولة، أو التى تقوم بدور تنموى مكمل لدورها، فمثلا مشروع الأسر المنتجة

فى مصر حصل على دعم ضخم من الصندوق الاجتماعى للتنمية وأيضا الجمعيات المعنية بمسائل الطفولة والأمومة وتنظيم الأسرة، وذلك على خلاف التعامل مع المنظمات الأهلية ذات المسحة السياسية والتى تتعرض للحصار والمواجهة العنيفة، وتوضع فى قفص الاتهام، أما فى الدول الغربية فلا يوجد فاصل بين السياسى واللاسياسى فى العمل الأهلى.

دور المجتمع المدنى فى دعم قضايا حقوق الإنسان:

اتسم بروز المنظمات الأهلية ذات الصبغة السياسية وأهمها منظمات حقوق الإنسان بمناخ من عدم الثقة والتردد فى التعامل معها من قبل الحكومات العربية، كما تقع صدامات بين الأخيرة ومنظمات حقوق الإنسان من حين لاخر وقد بلغت ذروة تلك الصدامات فى التسعينيات.

وبرغم ذلك نجحت المنظمات الحقوقية العربية فى وضع قضايا حقوق الإنسان على أجندة أعمال الحكومات، وكذلك الرأى العام. فعلى سبيل المثال، جاء إشهار المنظمة المصرية لحقوق الإنسان بعد خوضها معركة طويلة مع الجهة الإدارية استمرت ما يقرب من ١٨ عاماً حول فى اسم المنظمة واعتراض الجهة الإدارية على أنشطتها. فقد نشأت المنظمة عام ١٩٨٥ كفرع للمنظمة العربية لحقوق الإنسان. وتقدمت فى عام ١٩٨٧ بطلب تسجيل وفق القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤، وهو الطلب الذى قوبل بالرفض من قبل الجهات الإدارية، فلجأت المنظمة للقضاء الإدارى الذى أيد قرار الرفض وفى عام ١٩٩٢ تم الطعن على الحكم أمام المحكمة الإدارية العليا، وظلت القضية متداولة حتى عام ٢٠٠٠. فى هذا الوقت كان قد صدر قانون الجمعيات ١٥٣ لسنة ١٩٩٩، فتقدمت المنظمة المصرية بطلب تسجيل جديد، حيث قررت الجهات الإدارية تأجيل النظر فى الطلب بناء على طلب الأجهزة الأمنية، وهو ما يعنى امتناعاً سلبياً من جهة الإدارة. فقامت المنظمة بدورها بالطعن على القرار أمام محكمة القضاء الإدارى، وحصلت على حكم بالقيد فى سجلات وزارة الشئون الاجتماعية فى ٢٠٠١/٧/١، إلا أن الجهات الإدارية رفضت تنفيذ الحكم حتى صدور قانون الجمعيات ٢٠٠٢/٨٤ ثم تقدمت المنظمة بطلب تسجيل جديد بناء على الحكم الذى صدر لصالحها، وتم إشهار المنظمة المصرية لحقوق الإنسان كجمعية أهلية، وجاء الاعتراف الرسمى بالمنظمة المصرية من قبل الجهات الإدارية لاحقاً للاعتراف بها من قبل قطاعات اجتماعية وهيئات ومؤسسات وأفراد على المستوى الدولى والمحلي. ومن ناحية أخري، مازالت هناك مجموعة أخرى من المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الأهلية التى ترفض وزارة الشئون الاجتماعية إشهارها.

وبرغم ما سبق، نجحت المنظمة المصرية وغيرها من المنظمات العربية فى جعل حقوق الإنسان جزءا من الخطاب الحكومى العربي، ففى عام ١٩٩٠ طالبت المنظمة المصرية بإلغاء عقوبة الجلد من السجون، وبالفعل قدمت الحكومة مشروع قانون إلى مجلس الشعب بإلغاء تلك العقوبة فى عام ٢٠٠٠، كما يعتبر إنشاء المجلس القومى لحقوق الإنسان ترجمة لضغوط المنظمات الحقوقية على الحكومة المصرية فى هذا الإطار.

المجتمع المدنى وقضايا إشكالية:

أصبح مفهوم الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوقت الحالى من المفردات الأساسية فى الخطاب العالمى والإقليمى والوطنى وجزء لا يتجزأ منه، باعتبارهما يشكلان ركيزة أساسية من ركائز الإصلاح السياسى والذى يعد بدوره المدخل الرئيسى لأى إصلاح اخر.

ومن هذا المنطلق بادرت مؤسسات المجتمع المدنى العربية بمكوناتها الرئيسية فى أوقات كثيرة إلى بلورة الأهداف والغايات والمفاهيم العامة لعملية الإصلاح فى المنطقة، مؤكدة على استعدادها الكامل للمشاركة المباشرة مع الحكومة فى إعداد وتنفيذ خطة عربية وجذرية للإصلاح، إيماناً من تلك المؤسسات بأن مسئولية تنفيذ رؤى الإصلاح ونشر قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لا تقع على الحكومات العربية وحدها، وإنما تقع على مؤسسات المجتمع المدنى والحكومات معاً.

ولكن منظمات المجتمع المدنى تجاهها عدة إشكاليات وقضايا خلافية نطرحها للمناقشة ألا وهى:

١ - إشكالية العلاقة مع الدولة: شركاء/ أتباع

فبمراجعة تقارير التنمية البشرية الصادرة سواء من الأمم المتحدة أو من الحكومة المصرية، نجد أنها تتحدث عن مبدأ «المشاركة» بين المجتمع الأهلى والدولة. ولكن الواقع العملى يشير إلى خلاف ذلك سواء على مستوى القوانين والتشريعات أو الممارسات.

فبرغم نص جميع الدول العربية التى لها دساتير مكتوبة على حق تكوين الجمعيات والحق فى المشاركة والاجتماع السلمى لأهداف مشروعة اتساقا مع المواثيق الدولية، نجد أن التعامل مع المنظمات الأهلية عبر التشريعات المنظمة لهذه الحقوق كان متناقضاً تماماً مع المواثيق الدولية والدساتير المكتوبة، فقد اعتبرت هذه التشريعات أن الأصل هو حظر تكوين الجمعيات، والاستثناء هو منح هذا الحق بالقيود والإجراءات الصارمة التى يضعها القانون وبالسلطات الواسعة الممنوحة للإدارة، فضلاً عن تحديد الدولة لمجالات

عمل المنظمات الأهلية، وهذا معناه أن مبادرات الأفراد محدودة بتصورات الحكومة للأنشطة التى يجب أن تقوم بها الجمعيات.

وقد قيدت الحكومة المصرية وجود نشاط مؤسسات ومنظمات العمل الأهلى من خلال التشريعات المختلفة التى وضعتها لتنظيم عمل هذا القطاع، ولعل القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤ من أشهرها تقييداً للعمل الأهلي، مما جعله محلاً للانتقاد والهجوم من قبل هيئات أهلية وعندما شرعت الدولة فى طرح مشروع قانون بديل نجح نشطاء العمل الأهلى وحقوق الإنسان على وجه الخصوص فى تشكيل حملة من النقاش والحوار حول القانون وهو ما دفع بالحكومة إلى إشراك بعض قيادات العمل الأهلى وحقوق الإنسان فى لجنة صياغة القانون.

وبصدور القانون ١٥٣ لسنة ١٩٩٩ أعلنت الدولة مرة أخرى تمسكها الشديد باتجاه التقييد للعمل الأهلى وضربت عرض الحائط باراء نشطائه، بل وما انتهت إليه لجنة الصياغة للقانون ذات الأغلبية الحكومية، وسرعان ما سقط القانون سريعاً بعد أقل من عام لعدم دستوريته بناء على حكم محكمة الدستورية العليا فى ٣ يونيه عام ٢٠٠٠، فالسرعة التى اكتنفت عملية تمرير القانون فى مجلس الشعب والرغبة فى تجنب المزيد من النقاش والجدل، لم تسفر فقط عن الوقوع فى خطأ إجرائى أدى لعدم دستورية القانون فقط، ولكنه عكس أيضا أن الممارسات الفعلية للدولة قد غلب عليها سمة التردد.

وجاء القانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ حاملاً فى جنباته العديد من الإجراءات أو الأدوات التى من شأنها أن تحفظ للجهة الإدارية قدرتها على الإشراف والتدخل فى تحديد هامش الحركة الممنوح للجمعيات الأهلية، وهو ما تجلى فى تباين وجهتى نظر الجهة الإدارية ونظر الرافضين للقانون حول المادة (٤٢) الخاصة بإعطاء حق حل الجمعيات إلى الجهة الإدارية، والمادة (٢) التى تنص على اختصاص القضاء الإدارى فى نظر منازعات الجمعيات والمؤسسات الأهلية، فبموجب القانون تقوم الجهات الإدارية بالإشراف والتدخل فى عمل الجمعيات الأهلية بداية من بحث وفحص مدى توافر شروط تأسيس الجمعية من عدمه والغرض من قيامه، وشروط عضويتها وانتخاب مجالس إداراتها، وانتهاء بفحص ومراقبة ممارساتها وميزانياتها، ومدى التزامها بميدان ومجال نشاطها، وكيفية استغلال واستثمار أموالها.

وتضع الحكومات العربية العقبات القانونية أمام عمل المنظمة الأهلية بحجة الضبط والرقابة والتنظيم، وهذه الأمور مطلوبة ولكن فى حدود معينة لا ينبغى تجاوزها، فالذى يحدث خلافاً لذلك، بل وقد وصل الأمر إلى حد معاملة الجمعيات الأهلية بطريقة التقصى والمواجهات الأمنية، فالدولة تمارس نوع من «الوصاية والرقابة» على المجتمع

الأهلي، مما يتناقض مع مبدأ «المشاركة» . وهذه المشاركة ينبغي أن تبدأ من دور الجمعيات الأهلية فى صياغة القوانين الحاكمة لحركتها، وانتهاء بمشاركتها فى صنع القرارات. فالعلاقة بين الدول وتلك الجمعيات علاقة تكاملية وتعاونية وليست صراعية.

ويشترط لنجاح العلاقة التكاملية أن يكون ذلك فى إطار عمل حكومات ديمقراطية تهتم وتستجيب لمصالح القوى الجماعية والمستهدفة من نشاط المنظمات الأهلية. وفى هذه الحالة قد تنجح المنظمات الأهلية فى أن تجعل ما تقوم به الحكومة أكثر فعالية، ويمكن للدولة مساندة ما تقوم به المنظمات الأهلية حيث إنها فى وضع يؤهلها للاستجابة للاحتياجات الخاصة لقوى اجتماعية معينة. كذلك تستطيع المنظمات الأهلية ترجمة الاحتياجات المحلية إلى صياغة للأهداف وخطة للعمل خاصة أنها تستطيع أن تقيم علاقات وثيقة بالجماعات المحلية وبالحركات الاجتماعية أو المشروعات التى تساندها. كذلك فإن المنظمات الأهلية أقدر من الحكومات على التحرك السريع لأن هيكلها الإدارى أكثر مرونة ويتسم عادة بالروح النضالية.

ومن بين معوقات العمل الأهلى الأخرى، البيئة المعادية لحقوق الإنسان والديمقراطية المتواجدة فى عدة دول عربية والتى تتمثل فى استمرار فرض حالة الطوارئ، وتفشى التعذيب بصورة وأساليبه المختلفة فى السجون والمعتقلات ووجود محاكم أمن الدولة العليا والمحاكمات العسكرية.. إلخ.

وفى ظل هذه الوضعية المعادية لحقوق الإنسان وللرأى الاخر والتى لا يعلو صوت فيها فوق صوت الحكومة، يناضل نشطاء حقوق الإنسان فى الدول العربية من أجل نشر الثقافة الحقوقية بين أوساط الجماهير ويمارسون الضغط السلمى على الحكومة من أجل دفعها لاحترام حقوق الإنسان وادميته، غير مبالين لما يتعرضون له من اعتقالات ومحاكمات وتعذيب.. إلخ.

ولكن السؤال هنا: كيف تكون هناك مشاركة بين الطرفين فى ظل القوانين المقيدة للعمل الأهلى والتى من خلالها تفرض الدولة سيطرتها على المنظمات الأهلية بصورة تجعلها تابعة لها، يضاف إلى ذلك البيئة المعادية للديمقراطية وحقوق الإنسان فى الدول العربية التى تعوق بشكل أو باخر عمل تلك المنظمات؟.

وفى هذا الإطار، نؤكد أنه لن يتحقق التعاون والمشاركة بين الحكومات العربية والجمعيات الأهلية ولاسيما الحقوقية إلا عبر تخلى الأولى عن نهجها لاستبعادى لتلك الجمعيات من العملية السياسية والإصلاحية ولاسيما أنها تمتلك الخبرة الكافية فى مجال حقوق الإنسان والديمقراطية، وكذلك عبر رفع الحصار عن نشطاء حقوق الإنسان والسماح لهم بالتعبير عن ارائهم، وتذليل جميع العقبات والقيود القانونية والإدارية

والمالية أمام العمل الأهلى عامة والمنظمات الحقوقية خاصة من أجل ضمان أولاً أدائها الديمقراطى السليم، وثانياً تنشيط وتفعيل دورها فى تعزيز ونشر ثقافة حقوق الإنسان والديمقراطية بين صفوف المجتمع العربى باعتبار تلك المؤسسات، مؤسسات وسيطة بين الحكام والشعوب، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال إصلاح البيئة المحيطة بعمل الجمعيات الأهلية كشرط أساسى للإصلاح الديمقراطي.

ولعل المرحلة الحالية تستلزم إشراك جميع القوى السياسية والمجتمعية ومن بينها قوى المجتمع المدنى فى العملية الإصلاحية، وفى هذا الإطار، فلابد من تثمين الجهود التى بذلتها مؤسسات المجتمع المدنى فى مجال إعمال الفكر حول مفهوم الإصلاح فى العالم العربى وأولوياته واليات تنفيذه ومتابعته وبيان مواقف الأطراف المختلفة منه، وظهرت نتائج هذه الجهود فى وثيقة الإسكندرية الصادرة عن مؤتمر «قضايا الإصلاح العربي: الرؤية واليات التنفيذ» وذلك خلال الفترة من ١٢ – ١٤ مارس ٢٠٠٤، وهذه الوثيقة – التى ولدت على أيدى المنظمات الأهلية العربية – تتصف بالشمولية من خلال المحاور التى تبنتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومبادرة الاستقلال الثانى الصادرة عن مؤتمر بيروت فى الفترة من ١٩– ٢٢ مارس ٢٠٠٤، والتى حددت المبادئ العامة المؤطرة لعملية الإصلاح فى العالم العربي، ومؤتمر «أولويات واليات الإصلاح فى العالم العربى»، الذى نظمته المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ومجلة السياسة الدولية ومركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان خلال الفترة من ٥–٧ يوليو ٢٠٠٤، وكان من أهم توصياته إنشاء «منبر الإصلاح الديمقراطى فى العالم العربى» بهدف المساهمة فى إطلاق وتنشيط عملية الإصلاح فى الدول العربية، والملتقى الفكرى التاسع للمنظمة المصرية الذى عقد فى شهر فبراير ٢٠٠٥ تحت عنوان «الإصلاح الدستورى بين التعجيل والتأجيل» ، والذى تمخض عنه ميلاد «المنبر الدستورى المصرى» ويضم نخبة من ممثلى المجتمع المدنى والأحزاب السياسية وأعضاء مجلسى الشعب والشورى وفقهاء القانون الدستوري، ومن بين أهدافه إدخال تعديلات على دستور ١٩٧١ وصولاً لدستور جديد للبلاد يتماشى مع طبيعة المرحلة الراهنة، ويلبى امال وطموحات القوى السياسية والحزبية والمجتمعية، ويطلق الحريات أمام الجميع، ويلغى القوانين الاستثنائية بدءاً من قانون الطوارئ ١٩٨١ إلى قانون الحراسة والعيب مرورا بإلغاء أو تعديل قوانين الأحزاب ومباشرة الحقوق السياسية والنقابات المهنية، والصحافة، ويعيد هيكلة السلطة على نحو يحقق التعادل بين السلطات الثلاث مع هيمنة نسبية للسلطة التشريعية على السلطة التنفيذية، لتراقب أداءها وتحاسبها وبما يحقق فى نهاية المطاف تحولاً ديمقراطيا للمجتمع المصرى.

٢ - إشكالية العلاقة بين الداخل والخارج

وتحت هذه النقطة تثار عدة موضوعات مثل التمويل والتطبيع، وعلاقة التمويل بالسيادة الوطنية.. إلخ. وهناك قضايا عملية عديدة يثيرها تمويل المنظمات الأهلية مثل كيفية الحصول على المال، وكيفية المحافظ عليه وتنميته من أجل استمرارية المؤسسة، والطريقة المثلى لإنفاق المال لتحقيق الفائدة القصوى منه.

والتساؤل هنا: هل الجمعيات الأهلية بحاجة للتمويل الخارجى؟

قضية التمويل على جانب كبير من الأهمية، حيث أنه بلا مصادر مالية للإنفاق على أغراضها لا تستطيع المنظمات الأهلية أن تعمل. وقد اعتمد النشاط الأهلى العربى التقليدى (العمل الخيري) فى تمويله أساساً على التبرعات الفردية وأموال الزكاة وإيرادات الأوقاف للأغراض الخيرية وكان نصيب الحكومات قليلا للغاية. أما المنظمات الأهلية المستحدثة فى الدول النامية فتعتمد على المصادر الحكومية من ناحية وعلى التمويل الخارجى من ناحية أخري. وإن كانت الحكومات قد بدأت فى التخلى عن دورها التمويلى. أما التمويل الخارجى فيستلزمه ضرورة حل المعادلة الصعبة وهي: إمكانية الحصول على التمويل من جهة والمحافظة على استقلالية المنظمة من جهة أخرى.

فى واقع الأمر أن الجمعيات الأهلية ليست وحدها التى تتلقى تمويلا من الخارج، فالأحزاب السياسية والقطاع العام نفسه يحصل على تمويل من الخارج! وهنا أؤكد أن جميع منظمات حقوق الإنسان تتلقى تمويلاً، ولكنه ينبغى أن يكون مشروطاً بشرطين أولهما: الشفافية وضرورة المحاسبة وإخطار الجهة الإدارية والشئون الاجتماعية والاستئذان منها وثانيها: الإعلان عن الميزانية السنوية. فالتمويل السرى من جهات غير معروفة مرفوض.

وإذا كانت الحكومة المصرية تحظر على الجمعيات تلقى أموال من الخارج فإنها لم تحل مشكلة الكثير من الجمعيات التى تعانى من مشاكل تمويلية، فهناك جمعيات واتحادات لم تتلق أى معونات أو تمويل من الجهة الإدارية لعدة سنوات، أما الصندوق الذى من المفترض أن يدعم الجمعيات، فإن الوصول إليه مرهون بعلاقة إدارة الجمعية بقيادات الوزارة.

٣ - إشكالية العلاقة مع الذات

فلابد من التعاون والتنسيق والتشبيك بين المنظمات الأهلية وبعضها البعض، وتبادل الخبرات والمعرفة والمهارات فى القضايا الحقوقية المختلفة، والبعد عن الخلافات

الشخصية، والتخلى عن «الشخصنة» داخل الجمعية ذاتها، لأن ذلك يلقى بظلاله السلبية على العمل الأهلى، فى حين إذا وجدت خطة مشتركة واليات عمل فعالة للضغط على الحكومة، فإن ذلك سيكون له تأثيرات بعيدة المدي، إذ ستنجح هذه المنظمات فى تشكيل لوبى جماعى يحقق المصلحة المشتركة والتى تصب فى الأساس لصالح نصرة قضايا حقوق الإنسان والديمقراطية.

وإذا نظرنا حولنا إلى خبرات الدول المتقدمة، التى تطور فيها القطاع الثالث إلى حد كبير، سوف يشد اهتمامنا دور منظمات هذا القطاع فى عملية صنع السياسات الاامة، وينعكس ذلك على تشكيل لجان عليا مشتركة حكومية وأهلية، وعلى دور فعال للأتصال بالبرلمانيين والتواصل معهم، ويجذب الاهتمام قدرات هذه المنظمات على توفير البيانات والمعلومات الدقيقة عن القضية أو السياسة العامة المستهدفة، وكذلك قدرات هذه المنظمات على التحالف معاً والتشبيك لإحداث التأثير مع توظيف الإعلام كالية للتعبير والتأثير.

ويشير كل ذلك، إلى أن تفعيل دور المنظمات الأهلية فى التأثير فى عملية صنع السياسات، يتحقق من خلال عدة أمور، أولها إدراك هذه المنظمات لدورها الذى يتخطى تقديم الخدمات ويمتد إلى التأثير فى السياسات العامة.

ثانيها: بناء قدرات هذه المنظمات سواء البشرية أو المؤسسية.

وثالثها: قدرات هذه المنظمات على التفاعل معا والتحالف من أجل التأثير فى مسار السياسات العامة.

وفى هذا الإطار، فإنه من الممكن بلورة ميثاق أخلاقى للممارسة بين منظمات العمل الأهلى وتنفيذه بشكل حازم ودقيق على أن يركز هذا الميثاق على المحاور التالية:

العلاقة بين القطاع الأهلى والقطاع الحكومى.

العلاقة بين القطاع الأهلى والمنظمات الدولية.

العلاقة بين القطاع الأهلى والمجتمع المحلى.

العلاقة بين القطاع الأهلى نفسه.

مبادئ عامة موجهة لكيفية إدارة المؤسسة داخلياً.

قضايا البناء الديمقراطى والشفافية والمحاسبة والثقافة المؤسسية والإدارة المالية وغيرها.

وهذه الإشكاليات وغيرها نطرحها للمناقشة بغية إيجاد حلول لها، فبغية نجاح مؤسسات المجتمع المدنى فى تحقيق أهدافها والمهام الموكلة إليها، فإنه لابد من إطلاق حرية تشكيلها عبر إزالة العقبات القانونية والإدارية والمالية التى تواجه عمل تلك

الجمعيات ومساعدتها على التمويل عن طريق القطاع الخاص ومساهمات رجال الأعمال، والاعتراف عملياً بقيم حقوق الإنسان فى التشريعات والنظر إليها على أنها أساس التنمية والتطور والديمقراطية، وزيادة دور مؤسسات المجتمع المدنى فى صناعة القرار، وإنشاء علاقة مشاركة بينها وبين الدولة وليست علاقة تبعية، وتغيير المفاهيم والمعايير القديمة فى عمل ونشاط الجمعيات الأهلية لمساعدتها وصولاً إلى مجتمع مدنى قوى قادر على المساهمة فى تعزيز قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

استراتيجية تفعيل القطاع الأهلي

تتلخص عناصر استراتيجية تفعيل القطاع الأهلى فيما يلى:

١ – إلغاء القيود الواردة بالقانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ الخاص بالجمعيات والمؤسسات الخاصة، والذى يعد عائقاً جديداً يعرقل العمل الأهلى ويعوق تنمية وتطوير المجتمع المدني، هذا بالإضافة إلى أنه يمثل تراجعاً عن قوانين الجمعيات فى الدول العربية المجاورة وعلى رأسها المغرب، ولبنان، واليمن، والعودة إلى النصوص الأصلية الواردة بالقانون المدنى التى كانت تنظم العمل الأهلى والتى تم إلغاؤها بالقرار الجمهورى رقم ٣٨٤ لسنة ١٩٥٦م.

٢ – ضرورة ضمان استقلال الجمعيات الأهلية، فحرية تكوين المنظمات والانضمام إليها يجب أن تكون بعيدة عن تدخل الحكومة، كذلك فإن تسجيل وتشكيل المنظمات وأنشطتها لا يجب أن يخضع لتدخلها، كما يجب خضوع تدخل الدولة فى حرية التنظيم للرقابة القضائية، وكذلك تطبيق ما أقرته المواثيق الدولية لحقوق الإنسان وكذلك الدستور المصرى من أسس ومبادئ للعمل وهى:

أ – أن لكل شخص طبيعى أو معنوى الحق فى المشاركة فى تأسيس الجمعيات وإدارتها والانتساب إليها والانسحاب منها بحرية، وأنه لا يجوز وضع القيود على ممارسة هذا الحق غير تلك المنصوص عليها فى الدستور والتى تستوجبها ضروريات المجتمع الديمقراطي.

ب – إعمال المبدأ القانونى الأساسى الذى ترتكز عليه حرية الجمعيات هو حق التأسيس دون حاجة إلى ترخيص أو إذن مسبق فالجمعيات تتأسس بمجرد اتفاق إرادة مؤسسيها ولا يجوز أن تشكل إجراءات التأسيس عوائق وعراقيل أمام تأسيس الجمعيات، ويجب أن تتسم هذه الإجراءات بالسرعة والوضوح والبساطة وبدون تكلفة وألا لا تخضع للسلطة التقديرية للإدارة.

ج – تدار الجمعية بواسطة هيئاتها المنصوص عليها فى أنظمتها الخاصة ولا يحق

للإدارة العامة التدخل فى عملية تسيير اجتماعاتها أو انتخاباتها أو نشاطاتها أو التأثير عليها.

د- للجمعيات الحق فى تنمية مواردها المالية بما فى ذلك رسوم وتبرعات الأعضاء وقبول الهبات والمنح والمساعدات والقيام بنشاطات من شأنها أن تحقق لها دخلا يستخدم فى أنشطتها بشرط تحقيق مبدأى الشفافية والمحاسبية.

هـ - يجب الأخذ بمبدأ تناسب الجزاءات مع المخالفات، ولا يجوز توقيع عقوبات جنائية على العمل المدنى للجمعيات أو على أعضائها، وفى مطلق الأحوال لا يمكن أن يقرر أو يحكم بتلك الجزاءات إلا من قبل القضاء بعد ضمان حق الدفاع فى محاكمة علنية وعادلة.

و - إعمال المبدأ بأنه لا يحق للإدارة العامة حل الجمعيات، ولا يمكن أن تخضع الجمعيات للحل إلا بقرار صادر عن هيئاتها الخاصة أو بحكم قضائى نهائى بات وبعد أن تكون قد استفادت الجمعية من حق الدفاع فى محاكمة علنية وعادلة، وفى حالات يجب أن يحددها القانون صراحة وحصرا.

٣ - التأكيد على ثقافة بناء المؤسسات المدنية، وذلك عبر دعم وترسيخ عدد من العناصر المحددة لهذه الثقافة، والتى يأتى فى مقدمتها العمل على توسيع النزوع نحو العمل الطوعي، وإعمال قواعد المحاسبية والشفافية كقيم أساسية فى الممارسة الديمقراطية، وإعطاء مساحات أكبر للثقافة المدنية عبر وسائل الإعلام، وذلك بالتأكيد على قيام المجتمع المدني وفى مقدمتها قبول الاخر، وإعلاء قيام الحوار وتوفير ضمانات الحرية العامة فضلاً عن تعزيز الإعلام النقدى وتوسيع المساحات الإعلامية الخاصة بتغطية نشاط المنظمات غير الحكومية.

٤ - ضرورة تفعيل أداء الجمعيات الأهلية عبر:

- رفع القيود التى تفرضها الدولة على عمل الجمعيات الأهلية.
- قيام الجمعيات الأهلية بدور أساسى فى تعليم الديمقراطية، وفى نشر الثقافة السياسية.
- إعمال الجمعيات على المبادئ الديمقراطية فى الإدارة الداخلية، وكذلك تداول السلطة فى المناصب القيادية بالجمعية.
- قيام الجمعيات بتشجيع التطوع ليكون هو السمة المميزة للعمل الأهلى المصرى.

قراءة نقدية

«المهمشون فى التاريخ الإسلامى»

أحمد صبرى السيد على

ربما لا يعد اهتمام د. محمود إسماعيل بالحركات الاجتماعية شيئاً جديداً، من حيث تبنيه للمادية التاريخية كمنهج للبحث، وهو ما يشترك فيه معظم الباحثين التاريخيين الماركسيين، إلا أن أبحاث د. محمود إسماعيل تتميز بأنها الأكثر وعياً ونضجاً فى استخدام المنهج المادى والتعامل مع النص، وهو ما تفتقر إليه مثيلاتها من الأبحاث الماركسية والتى تعانى من الازدواجية فى تعاملها مع النصوص فترفض بكل جرأة الاتهامات التى يوجهها مؤرخو السلطة لهذه الحركات بالفساد الأخلاقي، ومن ناحية أخرى تقبل بكل بساطة الاتهامات التى يوجهها نفس المؤرخين وفى نفس النصوص لهذه الحركات بالفساد الديني، وهى مفارقة لم يقع فيها الدكتور محمود إسماعيل والذى أدرك مدى الربط المتعمد والمدروس الذى تقوم به هذه النصوص بين الخروج على الحاكم والخروج على الدين.

فى كتابه الأخير «المهمشون فى التاريخ الإسلامى» يواصل د. محمود

إسماعيل رصده للحركات المجهولة والمشوهة فى التاريخ الإسلامى المدون وهو ليس الكتاب الأول فى هذا المجال حيث سبقه كتاباه المهمان «فرق الشيعة»، «الحركات السرية فى الإسلام» وقد عالج فيهما الدكتور محمود إسماعيل العلاقة بين التطورات الاجتماعية ونشوء الفرق الدينية فى التاريخ الإسلامي، ويبدو الكتاب الأخير كتتويج - ليس نهائياً- لأبحاثه فى هذا الموضوع ، وقد صرح الدكتور محمود إسماعيل فى مقدمة الكتاب أن غايته الأساسيةً هو تقديم تاريخ لحركات المهمشين فى صورة مقالات مبسطة للمثقفين العاديين لنشر الوعى التاريخى والذى يؤكد الكاتب على أهميته فى قراءة حاضرنا المعقد والمضبب فى آن، ولعل هذا ما يفسر عدم احتواء الكتاب على أى هوامش توثيقية، على أساس أن الكتاب هو تجميع مختصر لنتائج أبحاثه ودراساته فى كتبه السابقة.

فى هذا الإصدار الأخير قدم د. محمود إسماعيل عدة نماذج لحركات وهبات المهمشين، وقد راعى أن تكون متضمنة لجميع الأشكال والأساليب التى استخدمها العوام فى الثورة، وقد تنوعت ما بين الهبات العفوية، والثورات المنظمة التى امتلكت فكرا عقائدياً وبرنامجاً بديلاً للوضع القائم، وأخيراً التنظيمات العشوائية والتى رغم صدامها مع السلطة لم تكن تمتلك أى برنامج أو أهداف تسعى لتحقيقها، ورغم هذا التنوع فقد افتقد هذا الكتاب الإشارة إلى بعض الثورات الأخرى للمهمشين كانت أكثر قوة وأوسع تأثيراً لعل أهمها ثورة «بابك الخرمى» فى أذربيجان، والثورة «السربدارية» فى خراسان، والواقع أن إحدى سلبيات هذا التنوع هي وضع هذه الأشكال من التعبير الثورى فى مستوى واحد فقد افتقد الكتاب تقييماً نهائياً لمدى جدوى هذه الأشكال من التعبير الثورى فى تحقيق مصالح الكادحين، ورغم أن الأبحاث ذاتها احتوت على انتقادات خاصة بكل حركة فإنها لم تتطرق إلى نقد الشكل الأصلى بقدر ما انتقدت الممارسات التفصيلية.

يبدو واضحاً من مقالات الكتاب استهدافها لتأكيد عدة قواعد فى تاريخ الثورات الاجتماعية استقاها كاتب هذا المقال من أبحاثه الطويلة فى هذا المجال:

١ - عدم براءة المادة التاريخية المتاحة.

٢ – دور البرجوازية فى رعاية الحركات التنويرية والثورية للمهمشين.
٣ – ضعف الوعى الطبقى فى هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى.
٤ – وحدة تاريخ العالم الإسلامى من حيث حركيته وصيرورته.
٥ – الدور الثانوى للمذاهب الدينية فى الصراع الطبقي.

إن مناقشة هذه القواعد تمثل فى الواقع مناقشة لجزء كبير من رؤية الدكتور محمود للتاريخ الإسلامى والتى تتضح فى كتاباته عموماً وعلى الأخص الكتاب الأكثر أهمية فى هذا المجال، والذى يمثل مشروعه الفكرى والتاريخى «سوسيولوجيا الفكر الإسلامى».

● إن استعراض بدايات التدوين التاريخي يؤكد لنا صحة القاعدة الأولى التى تنص على عدم براءة المادة التاريخية المتوافرة، ففى عام ١٤٣ هـ قام الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور بالتشجيع على تدوين العلوم المختلفة وخاصة علمى الحديث والتاريخ، بهدف خدمة الأغراض الدعائية والإعلامية للسلطة العباسية الجديدة، ومن الواضح أن هذين العلمين على وجه الخصوص وضعا تحت مراقبة السلطة التى استخدمتها فى مواجهة الحركات المناهضة.

والواقع أن وجود صدام طبقي، أو عقائدي، أو سياسى ما بين راوى النص التاريخى والقائمين على الحدث التاريخى الذى يرويه يجعل من المستحيل الحديث عن نص محايد تماما، فأغلب المصادر التاريخية تتعارض مع الحركات الاجتماعية من النواحى الثلاث. كما أن الاتفاق فى ناحية أو ناحتين لا يعنى إهمال نقطة الخلاف الموجودة والتى تلقى بظلالها على ما يرويه المؤرخ.

وعلى سبيل المثال فإن المرويات الشيعية الرسمية من صاحب الزنج تتخذ مواقف سلبية عموماً، ومع ذلك فقد ذكرت المعاجم الشيعية أسماء لمؤلفات ألفها بعض الشيعة المقربين من صاحب الزنج، والتى لم يكتب لها البقاء للأسف، ككتاب (أخبار صاحب الزنج) لأحمد بن إبراهيم العمي، وقد كانت كفيلة بمنحنا رؤية صحيحة ومختلفة تماما عن هذه الثورة.

● بالنسبة للقاعدة الثانية فقد عزا الدكتور محمود إسماعيل قصور الوعى الذى

شاب معظم حركات المهمشين فى بعض جوانبه إلى غياب دور البرجوازية والتى وصفها بأنها «عاجزة وهزيلة دافعت عن وجودها والحفاظ على مصالحها، بمهادنة الحكومات القائمة وليس بالثورة عليها وتقويض حكمها» وقد أرجع هزال البرجوازية وعجزها إلى عوامل «جغرا - تاريخية» تتعلق بطبيعة المجتمعات الإسلامية الزراعية الرعوية أساساً وبالتالى فلم تتخلق طبقة وسطى قوية وقادرة على الصراع مع الإقطاع العسكري، بل هونت من هذا الصراع وخففت حدته، الأمر الذى أتاح للنظم القائمة الدوام والاستمرار.

إن هذا التصور صحيح بكل تأكيد ومن الممكن إضافة عوامل أخرى لضعف البرجوازية، فالملاحظ أن هناك خلافات بين العالمين الشرقى والغربى فى نشأة الدول واضمحلالها، فبينما تنشأ الدول فى العالم الغربى بناء على تطور نمط إنتاج معين، فإن نمط الإنتاج فى الشرق ينشأ ويتطور بناء على رعاية ودعم الدولة، وهو يعود بالطبع إلى العوامل الـ «جغرا - تاريخية» التى أشار إليها الدكتور محمود، فالمسألة الزراعية لم تطرح نفسها بقوة إلا عقب تكوين الوحدة السياسية لا العكس، وهذه الوحدات تنشأ فى الواقع بالاعتماد على وضعها القبلى والجغرافى وليس الطبقي، أما الطبقة التجارية فهى غير قادرة على خوض صراع مع الإقطاع بشكل منفرد بسبب عدم استقلاليتها وارتباطها بالحكم المركزى وخضوعها للأعراف القبلية، وتحول الكثير من أبنائها إلى حيازة الأرض الزراعية، وبالتالى فالأزدهار التجارى كقاعدة يعبر دائماً عن قوة وضع الحكومة المركزية فى مواجهة الطموحات الاستقلالية للإقطاعيين العسكريين، فى حين يشير الانهيار التجارى إلى سيطرة الإقطاع العسكرى وسقوط قوة الحكم المركزي، إن أهم صور هذا الهزال البرجوازى تبدو واضحة فى المذاهب الفقهية والعقائدية، فلم يصمد مذهب واحد من المذاهب التى أنتجتها البرجوازية التجارية كالمعتزلة والكرامية والمرجئة، بل إن المذهبين الوحيدين الباقيين من منتجات البرجوازية وهما: الزيدية والإسماعيلية يعانيان من الحصار الجغرافي.

- القاعدة الثالثة تمثل السبب الثانى فى قصور حركات العوام وهو «ضعف الوعى

الطبقي» يطرح الدكتور محمود إسماعيل هذه القاعدة كتفسير لقصور كل الحركات الاجتماعية، إلا أن الواقع أن ضعف الوعى الطبقى لا يشمل سوى الحركات والتنظيمات العشوائية كـ «الحرافيش» فى مصر، وحركات «الأحداث» فى الشام، و«الصقورة» فى المغرب والأندلس، و«الفتاك» فى آسيا الوسطي، وحركات «الفتوة» فى الشام والعراق، إضافة إلى الحركات الحرفية كـ «العيارين» فى العراق، والتى لم تكن تملك أى أهداف أو طموحات سياسية، ولم يكن لها برنامج اجتماعي بديل، وبالتالى فقد كان بمقدور السلطة القضاء عليها بسهولة بل واستخدامها فى مواجهة أعدائها فى بعض الأحيان، فيروى ابن جبير فى رحلته عن مشاهداته بدمشق، أن حركات «الفتوة» بالشام والتى كانت مؤيدة من صلاح الدين الأيوبي، كانت تقوم بعمليات اغتيال ضد الأهالى الشيعة فى دمشق والذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكانها فى تلك الفترة، والغريب أن المثل الأعلى لزعماء هذه الحركات كان على بن أبى طالب!! وهنا يبدو من الواضح استخدام صلاح الدين لهذه الحركات فى مواجهة الشيعة الذين اعتبرهم أعدائه التقليديين لإحداث تغيير فى الانتماءات المذهبية لسكان دمشق، وبالتأكيد فإن هذه العمليات لا تنم عن أى وعى طبقى أو سياسي، أما حركات العيارين في العراق والحدادين فى الأندلس فلم تكن لها أى مشروعات فى مواجهة السلطة القائمة لذلك فقد كان من السهل على السلطة التعامل معها والسيطرة عليها ومن ثم استغلالها.

ومن البديهى أن نجاح الثورة أو فشلها ليس دليلاً على وجود الوعى الطبقى أو انتفائه، ومع ذلك فنفس هذا القدر من الوعى هو الذى نجح العوام عن طريقه فى تأسيس دولة القرامطة، والدولة الصفارية، إن الحركات الشيعية والخارجية كانت تمتلك قدراً كبيراً من الوعى الطبقى كما امتلكت برامج اجتماعية بديلة، وبينما كان الشيعة يمثلون مصالح الفلاحين والحرفيين وصغار التجار وهى الطبقات والشرائح التى استفادت من الإجراءات الاقتصادية التى أصدرها على بن أبى طالب.

والواقع أنه حتى الحركات الاجتماعية والتى فشلت فى البقاء لفترات طويلة كانت تمتلك وعياً طبقياً كثورة بابك الخرمى، وثورة أبى الخطاب الأسدي، وثورة المقنع

الخراساني، ولم يكن فشلها ناتجاً عن ضعف الوعى الطبقىَ بقدر ما كان ناتجاً عن أخطاء تنظيمية أو سياسية.

● القاعدة الرابعة تبدو مرتبطة برفض الدكتور محمود إسماعيل لنظرية بعض المثقفين المغاربة حول حدوث قطيعة بين المشرق والمغرب الإسلاميين، وبالتالى فقد ضمن الكاتب خمسة نماذج لحركات وهبات قام بها المهمشون فى المغرب الإسلامى والأندلس، وهى بالفعل حملت الكثير من عناصر التشابه مع مثيلاتها فى المشرق.

وبالتأكيد لا يمكن الاتفاق على وجود قطيعة معرفية بين المشرق والمغرب الإسلاميين فى حين أن كل المذاهب الدينية التى اعتنقها المغاربة قادمة أصلاً من الشرق، إلا أنه وفى المقابل هناك بالفعل خصوصية فى التاريخ المغربى ففى حين أدت الإجراءات الاقتصادية للخلافة الأموية بالشرق إلى القضاء على الإقطاع القبلى تماماً، كما أدت الثورات العلوية وصعود العباسيين إلى ضعف الانتماء القبلى كوضع اجتماعي، استمرت سيادة هذا النمط فى مناطق المغرب إلى فترة متأخرة من الخلافة العباسية، وكانت معظم الحركات المعارضة للحكم تعبيراً عن الصراع ما بين الوضع القبلى السائد فى المغرب والأشكال الأخرى للإقطاع فى الشرق والتى كانت الدولة العباسية تطمح إلى سيادتها وقد قامت معظم الدول المعارضة للعباسيين بناء على تأييد زعماء قبائل أمازيغية (بربرية) لها.

لقد استدل د. محمود إسماعيل على التشابه فيما بين المشرق والمغرب بحركة «عمر بن حفصون» التى قامت فى الأندلس، ورغم اتفاقى مع الدكتور محمود على عدم وجود القطيعة المدعاة بين الشرق والغرب فإن الاستدلال بثورة عمر بن حفصون ربما لا يمثل الدليل الأكثر واقعية، إن من الخطأ الربط بين تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس الذى يمتلك وضعاً اقتصادياً واجتماعياً مختلفاً تماماً عن المغرب فقد كان التنوع ما بين عناصر المسلمين ما بين العرب والأمازيغ إضافة إلى خليط من الموالى الفرس والأفارقة وأكثرية من المسلمين من أصول أسبانية دوره فى القضاء على سيادة الانتماءات القبلية، خاصة أن المجتمع الأندلسي ذاته لم يكن مجتمعاً قائماً على القبلية قبل دخول الإسلام، فرغم الارتباط الجغرافى والإثنى بين المغاربة والأندلسيين، فإن

الأندلس أقرب إلى الشرق من الناحية الاجتماعية والمعرفية، فبعكس المغرب فقد تنوعت المذاهب الدينية فى أوساط الأندلسيين بالإضافة إلى المذهب المالكي، حيث انتشر المذهب المعتزلي، كما انتشرت المذاهب الشيعية على نطاق واسع كالمذهب الإسماعيلي، والمذهب الإثنى عشرى بل إن ظاهرة العزاء الحسينى المنتشرة الآن بين الشيعة فى العالم الإسلامى بنفس طقوسها بدأت أصلا فى مدينة مرسية وشرق الأندلس، حيث كان يقام مشهد جنائزي يجسد استشهاد الحسين بطريقة تمثيلية، ويحضر القراء والمنشدون لقراءة المراثى الحسينية، كما ألف الموريسكيون كتاباً فى مغازى الإمام على بن أبى طالب يبدو فيه بوضوح آثار الكثير من العقائد المتداولة بين الشيعة، وبالتالى فقد مثلت الأندلس إقليماً أوروبياً له صفاته الخاصة المختلفة عن الشرق الآسيوى والغرب الإفريقي.

إن النماذج الخمسة التى أوردها د. محمود إسماعيل لا يمثل المغرب فيها إلا بنموذجين وهما حركة «حميم المفترى»، وحركات «الصقورة»، وبينما تنتمى الحركة الأولى إلى الطابع المغربى القبلى التقليدي، فإن حركات «الصقورة» هى المثال الأكثر وضوحاً على عناصر التشابه والتواصل الموجودة بين المشرق والمغرب والأندلس، بل يمكننا أن نؤكد أن التشابه ما بين المشرق الإسلامى والأندلس أكبر من التشابه بينه وبين المغرب، ولعل من الملاحظ على الثورات والحركات الأندلسية رغم اتسامها بانعدام الأيدلوجية المذهبية – وهى سمة كل النماذج الأندلسية التى أوردها د. محمود إسماعيل – ارتباطها أكثر بطموحات العوام وعدم اتسامها بأى ملامح قبلية، وتمثل ثورة «عمر بن حفصون» الدليل الأكبر على ما للأندلسيين من خصوصية.

● يتبقى القاعدة الخامسة والتى أشار لها الدكتور محمود إسماعيل فى الكتاب فى إطار عرضة لثورتى «الخشبية»، و«الزنج الأولى والثانية»، حيث أشار إلى ثانوية دور المذاهب الدينية فى الصراع الطبقي، إن هذه القاعدة ربما تصدق على الوضع فى الأندلس كما أشرت سالفاً، إلا أن الأوضاع الاجتماعية فى مناطق العراق كانت مختلفة، فبغض النظر عن الدلائل التاريخية فإن معظم الثورات الاجتماعية كانت لها انتماءات مذهبية وخاصة التشيع، فقد استفاد الكادحون والحرفيون ومعظمهم من

الموالى – كما أشار د. محمود – من الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية لعلى بن أبى طالب، وبالتالى فقد كان للتيار الشيعى شعبيته الجارفة فى أوساط الفلاحين والحرفيين بالكوفة وهم الذين قاموا أساساً بثورة الخشبية بقيادة المختار بن أبى عبيد، ولعل ما يذكره الطبرى عن الشخصية المرتبطة أكثر بهذه الثورة «أبا عمرة كيسان التمار»، وهو مولى فارسى والمحرك الرئيسى للأحداث، أنه عوقب فى عهد معاوية بن أبى سفيان بتهمة التطاول على الأمويين والسبئية تدليل واضح على تشيع الثورة.

إن السبب الرئيسى لشكوك الدكتور محمود إسماعيل حول ثورة الخشبية هو هذا الكم من المرويات عن المختار والذى يشكك فى انتماءاته ويصفه بالانتهازية والتقلب الفكرى والمذهبى ما بين الانتماء للأزارقة ثم لابن الزبير ثم التشيع وأخيراً استغلال اسم محمد بن الحنفية والزعم بكونه المهدى المنتظر لجذب شيعة الكوفة إليه.

إن نقد هذه المرويات فى الواقع يظهر ما تعانيه من ضعف وتناقض فقد فسرت هذه المرويات اشتراك المختار فى الدفاع عن مكة ضد جيش يزيد بن معاوية مع الأزارقة أنه انتماء لهذه الفرقة، على الرغم من أن هذا الدفاع لم يكن بقيادتهم وإنما بقيادة عبد الله بن الزبير، والغريب أن المرويات التاريخية لم تدع أبداً أن نافع بن الأزرق زعيم الأزارقة من الموالين لابن الزبير بناء على محاربته للأمويين تحت قيادته، فى حين فسرت مبايعة المختار لعبد الله بن الزبير كمناورة سياسية لتحييده مؤقتاً فى أثناء محاولته السيطرة على الكوفة على أنه ولاء لابن الزبير، والواقع أن المختار كان ولاؤه للشيعة منذ البداية كما شارك فى ثورة الحسين وكان أول المستقبلين لمندوب الحسين للكوفيين مسلم بن عقيل واستضافه فى منزله لفترة أما المرويات التى تنقل عنه الترويج لمهدية محمد بن الحنفية فقد نقلت معظمها على لسان المعادين له وللعلويين كعامر الشعبى راوى البلاط الأموى وأبو الحسن المدائنى راوى العباسيين، إن الموقف الإيجابى للأئمة العلويين وخاصة على بن الحسين من الثورة والتى حصلت على مباركته تدليلاً واضحاً على عدم صحة هذه الاتهامات والتى تعد تقليدية فى مواجهة ثورة امتلكت عقيدة مخالفة للأرستقراطية ووعياً طبقياً فى مواجهتها.

الأمر ذاته ينطبق على الأوضاع فى البصرة والتى لم تخل من وجود موالين للعلويين وبرز دور هؤلاء بوضوح فى أثناء ثورة الحسين حيث استطاع زعيمهم يزيد بن مسعود النهشلى حشد أتباعه من بنى تميم وبنى حنظلة سراً وتجهيزهم انتظاراً لوصول الحسين إلى الكوفة، والمعروف أن على بن أبى طالب هو أول من استخدم الزنج وعنصر الزط فى الدولة كحرس على بيت مال البصرة، وهو ما يعنى أن جلبهم تم قبل سيطرة الأمويين على العراق، وقد تحسنت أوضاعهم فى عهده كغيرهم من الموالي، إلا أن مشاركتهم فى الأحداث ظلت قليلة، وتذكر المرويات أن أول انتفاضاتهم كانت فى عهد مصعب بن الزبير، الذى خاض صراعاً مع المختار عقب استيلاء الأخير على الكوفة، مما قد يشير إلى علاقتهم بثورة المختار الثقفي.

لقد استدل د. محمود إسماعيل على اعتناق الزنج لمبادئ الخوارج بتلقب زعيمهم «شير زنجى» بلقب الخلافة «أمير المؤمنين»، إن إذاعة الأمويين لهذا الإدعاء يمثل مبرراً فقهياً للبطش بهؤلاء الثوار، إضافة إلى إزكاء سلاح العصبية العنصرية لدى القبائل العربية وهو ما حدث بالفعل - كما ذكر د. محمود - والواقع أن الفكر الخارجى على الرغم من إعلانه أحقية كل المسلمين بالإمامة، فإنه على مستوى التطبيق - فى مناطق الشرق - ظل عربياً متزمتاً ولم يتقبل بالفعل أى حقوق للموالى فى هذا الشأن، وبالتالى رغم تعاطف الكثيرين من الموالى مع الثورات الخارجية نكاية فى الأمويين فإن قليلاً منهم فقط هم من اعتنقوا هذا المذهب بالفعل.

على أن علاقة ثورة الزنج الثانية بالفكر الشيعى أكثر وضوحاً، فقد انتسب على بن محمد إلى الإمام على بن أبى طالب وعلى الرغم من المرويات الكثيرة المشككة فى نسبه فقد اعترف به العلويون المعاصرون، وانضم بعضهم إليه، كعلى بن زيد وطاهر بن أحمد بن القاسم، ومحمد بن القاسم، والواقع إن إعلان صاحب الزنج لنسبه العلوى هو تدليل على تشيعه، إضافة إلى مناصرة هذا الكم من العلويين له، ووجود شخصيات شيعية إثنى عشرية كالمعلى بن أسد العمى بين المقربين له، ولابد من الإشارة إلى الرقابة اللصيقة التى تعرض لها الحسن بن على (الإمام الحادى عشر) والمعاصر لهذه الثورة فى تلك الأثناء والتى انتهت باغتياله كما تروى المصادر

الشيعية ولعل وفاته فى سن صغيرة تدليلاً على أنها تمت بطريقة غير طبيعية.
إن الجانب المذهبى لم يكن ثانوياً فى هذه الثورات المطالبة بتطبيق الشعارات الإسلامية فى العدل الاجتماعى والمساواة، وبالتالى فقد كان يجب صياغة هذه المطالب والاستدلال عليها بالآيات القرآنية والسنة النبوية وممارسات الصحابة الأوائل، والتى تعنى بداهة اعتناق الثوار لمذهب عقائدى يواجه مذهب وفقهاء الدولة، وتصور التئام كل المستضعفين بمختلف انتماءاتهم المذهبية تحت راية زعيم واحد يعد مثالياً بالنسبة لهذه المرحلة التى كانت السيادة فيها للفكر الديني، فمما تشترك فيه الثورات عموما أن زعماءها يستمرون فترة قبل الإعلان عنها يدعون لمذهبهم سراً بين العوام والكادحين الأمر الذى يؤكد التلازم ما بين الثورة وعقيدتها الدينية والتى تعبر أيضا بصورة ضمنية عن مصالح طبقة معينة كما أشرت سابقاً.
لقد احتوى الكتاب إضافة إلى القواعد السابقة على مناقشة لبعض التساؤلات التاريخية التى مازالت محل بحث ودراسة الكثير من المتخصصين، خاصة فى الفصلين الأخيرين، اللذين خصصهما د. محمود إسماعيل لبحث وضع مصر من المد الثورى فى التاريخ الإسلامي، والإنتاج الأدبى والإبداعى للمهمشين، وقد أنتج هذا البحث آراء مهمة سواء من ناحية النظرية أو التطبيق، وعلى الرغم من أن التوصل إلى نتائج حاسمة فى هذين المبحثين يحمل الكثير من الصعوبة فإن طرح د. محمود إسماعيل هذين المبحثين للمناقشة يمثل بكل تأكيد أحد عناصر التميز فى هذا الكتاب.

رؤية

محمد مندور والقضية الوطنية

د. إيمان السعيد جلال
أستاذ اللغويات المساعد
كلية الألسن - جامعة عين شمس

الجلاء التام «جوهر القضية الوطنية»

حصلت مصر على استقلال صورىّ بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، لكن خطوة واحدة نحو الجلاء لم تتخذ. لذلك لم يكن غريبًا أن يحمل أول مقال كتبه مندور لصحيفة «الوفد المصرى» عنوانه «الجلاء»(١) ذلك المطلب الأساسى من المطالب الوطنية، فقد قويت الروح الوطنية قرب نهايات الحرب، وارتفعت حدة المطالبة بانسحاب قوات الاحتلال بعد أن أسفرت الحرب عن نتائج يمكن أن تفيد منها الشعوب المستضعفة، فقد منيت الدول الاستعمارية بكثير من الضعف سواء فى ذلك الدول التى خرجت من الحرب منتصرة أو منهزمة.

أعرب مندور فى مقاله «الجلاء» عن أمله فى أن يرد الإنجليز الجميل لمصر التى ساندتهم فى أثناء الحرب، وطالب بوجوب تعديل معاهدة ١٩٣٦(٢) التى لم تعد تصلح أن تكون أساسًا يحدد العلاقة بين البلدين: «هناك أمل قوى فى أن تضع الحرب عما قريب أوزارها، ولا ريب أن هذه الأمة التى وفت بعهودها نحو إنجلترا أكرم الوفاء، تود لو استطاع الإنجليز أن يدركوا حقيقة أمانيها المشروعة، حتى يستطيع شعبنا أن يحتفظ نحوهم بشعور المهادنة،

بل الود الذى أظهره أيام الشدة، فالأمر كله لم يعد الآن بأيدينا، بل بأيديهم هم، وذلك لأنهم - بلا ريب - يدركون أنه ليس أشق على عزة الشعوب الأبية من أن تسلب حريتها، فيسترقها الأجنبى».

ويقول: «إن بشعبنا لحرقة إلى الحرية، وإنه لمن الخير أن يجاب إلى ما يبغى، وما يجوز أن يحتج بنصوص المعاهدة ومواعيدها، فالحرب القائمة قد غيرت - كما قيل غير مرة - جميع الظروف، ولم يعد هناك أى نوع من أنواع الخطر الذى يهدد بلادنا، بعد أن انهارت الإمبراطورية الإيطالية التى كانت تتاخمنا على الحدود الغربية، كما تتاخم السودان فى الحبشة. ومن هنا لم يعد المصرى يفهم سرًا لبقاء جندى أجنبى واحد ببلاده».

ولا يخلو الأمر من تهديد خفى بأن ترتفع حرارة كفاح المصريين ضد الوجود البريطانى، إذا لم يبادر بالجلاء عن مصر.. يقول: «ولا شك أنه إذا لم يتم الجلاء المطلق عن بلادنا عقب الحرب مباشرة سيحس كل مصرى أن بقاء أولئك الجند يجرح قوميته، ويسلب استقلاله كل معنى. ومصر التى تغار على استقلال البلاد العربية، وتكافح فى سبيله أنبل كفاح لن تنسى نفسها».

ولمزيد من التحديد والإيضاح كتب مندور - غير مرة - معددًا محددًا الأهداف القومية المصرية التى تسعى إلى تحقيقها، وتسوية موقفها مع الإنجليز.. كتب فى مقال: «مصر ومؤتمر الصلح»(٣) يقول: «وأمانى مصر القومية معروفة محددة، وهى تتلخص فى تقرير السيادة، وتعديل المعاهدة، والجلاء، وتحقيق وحدة وادى النيل، ثم وضع قناة السويس تحت سيطرة مصر وحمايتها، باعتبارها جزءًا من بلادنا، وباعتبار أن الخطر الذى يهددنا قد زال، وأننا نستطيع القيام على حمايتها دون حاجة إلى جيش أجنبى».

ووجد محمد مندور - بعد ذلك - أن الأمر ينبغى ألا يفهم باعتباره ردًا للجميل أو باعتباره أمانى قومية، فيؤكد أنها حقوق وطنية.. كتب فى مقال «أمانى أم حقوق»(٤): «إن ما نطلبه اليوم ليس أمانى بل حقوقًا.. وهذا التغيير الذى نقترحه ليس مقصورًا على الألفاظ، بل يتناول الحقائق والمشاعر.

لقد رأينا أناسًا يتساءلون عن الثمن الذى دفعناه لما نطلب تحقيقه من أمانٍ، ولو أنهم فطنوا إلى أن الأمر أمر حقوق لا أمانٍ لأمسكوا.. فكما يولد الناس أحرارًا، كذلك من حق الأمم الطبيعى أن تعيش حرة ذات سيادة كاملة. ولو أننا فرضنا أن هذه الحرب لم تقم، وأن مصر لم تساهم فيها بشىء لما تغيّر شىء من حقوقنا ولوجب أن نطالب بتلك الحقوق حتى ترد إلينا غير منقوصة».

الدعوة إلى النضال

لم يكن محمد مندور ممن يميلون إلى إثارة الرأى العام، ولكنه بعد حديث طويل متعقل إلى الإنجليز والحكومات المصرية استخدم فيه الجدل والتفنيد بهدف الإقناع بمطالب الوطن، لم

يجد مندور بدًا من توجيه حديثه إلى الشعب.

فكتب مخاطبًا الأمة، واضعًا إياها أمام مسئولياتها، بأن تنتزع حقوقها الدستورية المشروعة فى تقرير مصير البلاد.. كتب فى مقال: «الكلمة الآن للأمة»(٥) يقول: «لمن له حق أن يعمل للوصول إليه. وإذا كنا حقيقة أمة تستحق الاستقلال، وتريد أن تتمتع بسيادتها الخارجية، فعليها أن تثبت أولاً قدرتها على التمتع بالاستقلال الداخلى والسيادة الشعبية.

إن أمة على أبواب البت فى معاهدة عاتية تقيدها بالتزامات ثقيلة لم يعد لها ما يبررها. إن أمة يراد تكبيلها بقيود وأعباء جديدة، فى حلف عالمى يسمونه هيئة السلام، دون أن تفهم لذلك سرًا، ولا تجد له مقابلاً. إن أمة لها ملايين الجنيهات من الديون إذا لم تدفع انشلت حياتها الاقتصادية كلها واضطربت عملتها. إن أمة مطوقة تطويقًا اقتصاديًا يشل تجارتها الخارجية صادرًا ووارداً.. إن أمة فى أمسّ الحاجة إلى ثورة إصلاحية داخلية تتناول جميع نواحى حياتها الاجتماعية والثقافية. إن أمة تهب لاستغلال مواردها المعطلة حتى تكافح الفقر، ولا تريد أن تقع تلك الموارد فى أيدى الأجنبى أو فى أيدى الجشعين من أبنائها.. إن أمة هذا شأنها لابد لها إذا أرادت الحياة من أن تتحرك، وأن تطالب بحقها فى تقرير مصيرها، ولا يجوز لها أن تنتظر عونًا من أحد، أو تنتظر هبة من حكومة لا تريد أن تستمع إلى صوت العقل».

وأطلق هذه الزفرة، بعد أن ضاق صدره بالمماطلة، فكتب فى مقال «سياسة كسب الوقت»(٦) يقول: «أما لهذا الليل من آخر؟ سبحانك ربى! أهكذا قضيت على هذه البلاد الشريفة وعلى هذا الشعب المجيد أن لا تتحقق للوطن عزة، ولا للفرد عزة؟! ولكن الذل لم يدوم، ولكن شباب هذا الوطن وشيوخه، ولكن رجاله ونساءه، ولكن أحياءه وشهداءه سيعرفون كيف يفكون إسارهم ويستردون حرياتهم، ويعيشون كرامًا، أو يموتون كرامًا. فليراوغ الإنجليز كما يريدون، وليتحايلوا حتى لا ندرك فشل المفاوضات إلا بالتجزئة، وعلى أمد طويل، ولتمكنهم الحكومة المصرية والمفاوض المصرى مما يريدون.. فإن كل ذلك لن ينال شيئًا من روح الجهاد التى استيقظت فى الشعب، والتى لن تنام.. وليعلم أولئك وهؤلاء أن الشعب ماضٍ إلى ما يريد، وهو لا يريد غير الحرية، الحرية الساحرة العطر، الحرية الشريفة التى لا تُساوى الحياة بدونها قلامة ظفر.. وكيف يقف شعب أو يستنيم إلى ذل، وهو يعرف حق المعرفة أن المعتدى على وطنه كالمعتدى على عرضه سواءً بسواء».

استقلال البلاد العربية

ويربط مندور بين قضية مصر الوطنية، وقضايا البلاد العربية التى تعانى مرارة الاحتلال.. كتب فى مقال: «استقلال الدول العربية»(٧) يوضح حقيقة النضج السياسى الذى بلغه العرب، بما يعنى استحالة قبولهم الاحتلال والأطماع الاستعمارية فى بلادهم، مستخفًا بمنطق الاحتلال والسطو على أراضى الغير بالقوة: «وإنه حقيقة لأمر عجيب أن تخرج دولة

من الدول من بلادها لتضع يدها على مستعمرات وأسواق تجارية، ثم تريد لتضمن طرق المواصلات إليها أن تحتل البلاد التى تقع على تلك الطرق...

وأشد من ذلك غرابة أن تستخدم الدول المحتلة قواتها ضد أهالى البلاد المقيمة فيها لتلزمها طاعتها، ولتبتز منها ما تريد من امتيازات.

والحقيقة أن الأمر ليس قاصرًا على مواقع استراتيجية، بل إنه ليمتد إلى امتيازات اقتصادية وتجارية، هى فى الواقع مدار المعركة. والعرب الآخذ عددهم فى الازدياد، والآخذة ثقافتهم فى النمو وشعورهم الوطنى فى الاحتداد حريصون على أن يستكملوا استقلال بلادهم، وأن يحتفظوا بموارد ثروتهم بين أيديهم وأن يزيلوا كل عقبة تنهض أمام المشروعات الإصلاحية التى يريدونها، حتى تستقيم حياتهم الاجتماعية، وتتحقق فيها العدالة الواجبة. وهم فى صراحة غير مطمئنين إلى أن الأوروبيين ينظرون بعين الرضا إلى نهضتهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وذلك لأنهم يعلمون أن مثل هذه النهضة لابد أن تحطم أغلال الاستعباد».

- «ونحن نبغى أن نسير قدمًا فى مضمار الحضارة دون أن يعوقنا أجنبى عن ذلك، أنانية منه وظلماً باغيًا، وذلك لأننا شعوب قديمة، لها كبرياؤها، وليس أشق على نفوسنا من أن ينظر إلينا كأفراد أو كأمم نظرة الصغار. ونحن نعلم علم اليقين أننا لكى نستحق إكبار الغير لابد أن نجاهد لنكون شعبًا حرًا، أو أفرادًا أحرارًا يعيشون فى مستوى مادى واجتماعى لا يقل عن مستوى الدول الأوروبية. ويقيننا أنه لابد من استقلالنا استقلالاً تامًا، لنصل إلى هذه الأهداف.

ونحب أن يفهم الأوروبيون أننا ندرك تمام الإدراك أن العالم قد أصبح إلى حد بعيد وحدة اقتصادية وثقافية، وأننا لا نرفض التعاون وتبادل المنافع مع غيرنا من الدول، ولكننا نريد أن نقيم ذلك على أساس من التفاهم الصريح.. وأما النفاق من جانبنا أو جانبهم، وأما المراوغة والمداورة فهذه طرق عتيقة عقيمة».

السودان ووحدة وادى النيل

كان السودان تابعًا لمصر بمقتضى معاهدة لندن ١٨٤٠، وبعد الاحتلال البريطانى لمصر سيطرت بريطانيا على السودان وفرضت على مصر اتفاقيتى ١٨٩٩ اللتين أوجدتا الحكم الثنائى المصرى البريطانى للسودان، بينما انفردت بريطانيا بالإشراف الفعلى عليه. وأخذ النفوذ المصرى فى السودان يتقلص،بخاصة بعد حادثة مقتل السيرلى ستاك سنة ١٩٢٤. وحاولت الحكومات المصرية فى المفاوضات التالية للحادث أن تسترد كثيرًا من سلطاتها فى السودان دون جدوى.

وقد نصت معاهدة ١٩٣٦ على أن تُستمد إدارة السودان من نصوص اتفاقيتى ١٨٩٩، مع تأجيل الاعتراف بالسيادة المصرية فى السودان.



لكن السودانيين أخذوا يتطلعون إلى حق تقرير المصير، وضرورة إبداء رأيهم فى المعاهدة، بعد تجاهل رأيهم عند عقد معاهدة ١٩٣٦. وظهرت الحركة الوطنية السودانية التى ضمت تيارين وطنيين، أحدهما يؤمن بالوحدة مع مصر ويؤيدها، والثانى يسعى إلى الانفصال عن مصر، وهو التيار الذى سانده الإنجليز بما زعموه حول السودنة والحكم الذاتى للسودانيين.

شغل مندور بمشكلة السودان، وحدد طبيعتها فى مقال: «المشكلة السودانية»(٨) فأكد أن الاحتلال البريطانى للسودان كان جزءًا من خطة الإنجليز للإحاطة بمصر من حدودها الجنوبية، منتهيًا إلى أن خروج الإنجليز من السودان أمر بالغ الصعوبة. يقول موضحاً تمسك الإنجليز بالسودان، وأساليبهم فى إفساد علاقته بمصر: «الإنجليز إذن حريصون على البقاء فى السودان لقيمته الحربية، وبخاصة قيمة موانئه على البحر الأحمر من جهة، وقيمته الاقتصادية من جهة أخرى، وهم يستخدمون فى سياستهم هذه شتى السبل، فأحيانًا يقولون باستفتاء السودانيين، وأحيانًا يلوحون لهم بالحكم الذاتى، وفى النهاية يغرون بعض السودانيين ذوى الطموح بتمكينهم من بعض الوظائف السودانية، وكل هذا خداع فى خداع.

فالاستفتاء يستنكره السودانيون أنفسهم، لأنه سيجرى تحت ضغط السلاح البريطانى.. والحكم الذاتى ليس إلا سرابًا.. وأما الوظائف، فساذج مخدوع من السودانيين من يظن أنه سيلى منها وظيفة واحدة ذات نفوذ، مادام الإنجليز يحتلون بلاده.

وإذًا فكل ما يلوح به الإنجليز للسودانيين ليس إلا خداعًا، وهم إذا لم يربطوا مصيرهم بمصير مصر ربطًا صريحًا قلبيًا نخشى أن يقعوا فريسة فى يد الإنجليز، ويطول بهم الاستعمار، فلا يصلون إلى حكومة ديمقراطية مركزية، ولا إلى اتحاد مع مصر».

ويدعو البلدين لتوحيد المواقف لصالحهما معًا: «إن المشكلة السودانية يجب أن تناقش فى صراحة، وأن يسارع المصريون والسودانيون فيصلوا إلى كلمة سواء ويعلم الجميع أن الاستعمار إذا فرّق بينهم سيكون للجميع الويل.. وما يجوز أن يخدع أحد منا نفسه، فمصر والسودان محتلان، والخلاص من الاحتلال يتطلب جهادًا».

فلسطين قضية كل العرب

كتب محمد مندور فى أعقاب حرب ١٩٤٨ مقال «لن نقبل الركود لقضية فلسطين»(٩). يقول: «لقد تنفس العرب الصعداء عندما تحركت الجيوش العربية فى ١٥ مايو الماضى للقضاء على عصابات الصهيونيين، وتخليص العرب من آثامها، والمحافظة على فلسطين الشهيدة قطرًا عربيًا موحدًا، وبخاصة إذا ذكرنا أن كبح جماح الصهيونيين لن ينقذ فلسطين وحدها منهم، بل سينقذ البلاد العربية كلها، إذ إنهم كالسرطان الذى يخشى أن يتشعب فى جميع الجهات، وأن ينفث سمومه فى جميع الأقطار العربية حتى ليصح القول

وكتب يوضح المخطط الاستعمارى البريطانى لاستمرار السيطرة على مصر تحت اسم الدفاع المشترك.. فى مقال عنوانه «هل يصل الإنجليز إلى ما يريدون»(١٢): «وها هم الإنجليز قد تمادوا فى سخريتهم منا، وبلغ بهم الخبث الاستعمارى أن اخترعوا مجلسًا مشتركًا للدفاع، تواترت الأنباء لسوء الحظ أن الحكومة المصرية الحالية، ومعها نفر من المفاوضين قد قبلوا مبدأه، وراح رئيس الوزراء، ورئيس المفاوضين يهون من خطره الداهم، إما بالقول بأنه استشارى، وإما بمحاولة ربطه بنظام الأمن الإقليمى أو بقياسه باتفاق كندا والولايات المتحدة، وكل هذه حجج باطلة كما أوضحنا نحن، ووضح غيرنا من رجال السياسة والقلم، فالاستشارة عرفنا من سنين أن معناها عند الإنجليز الإملاء.. وأما ربط هذا المجلس الذى سيتحكم فى جيشنا وفى كافة مرافقنا وطرق مواصلاتنا وموانينا ومطاراتنا بصفة دائمة، كما قال رئيس الوزراء نفسه، فأمر واضح البطلان..

وليست مصر مجاورة لإنجلترا، ولا مكافئة لها، ولا طليقة من سيطرتها الاستعمارية كما هو الحال بين كندا والولايات المتحدة، ولقد كان فى خلق مجلس الأمن ما كفى ويكفى عن مثل هذه الاتفاقات، والتى لا علاقة لها إطلاقا بدعوى المحافظة على الأمن والسلام الدوليين».

القوى الدولية الجديدة

وهى القوى الصاعدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فقد خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب وقد تفوقت عليها قوتان عظميان. وقد أكد مندور فى مقالاته أن الشرق العربى لن يستبدل سيدًا بسيد، أى أنه لن يستبدل الاستعمار السوفييتى بالاستعمار الإنجليزى أو الأمريكى. وبيّن نموّ الوعى السياسى المصرى والعربى، بما جعل العرب جميعًا يبغضون الاستعمار أيًا كانت وجهته.. يقول فى مقال: «الشرق الأوسط بين روسيا وإنجلترا»(١٣): «الجنس العربى كله لم يعد يطيق صبرًا على الاستعمار، أيًا كان المستعمر وهو بلا أدنى ريب لا يريد أن يستبدل سيدًا بسيد، وإنما يريد أن يتحرر، لأنه يعتقد أنه وصل من الوعى السياسى والتقدم المادى إلى مرحلة لا يمكن أن يستمر معها استعماره».

ويؤكد مندور أن الشرق العربى - ومعه مصر - يريد فى إطار هذا الوعى أن يستعين بالاتحاد السوفييتى، وأن يفيد من تأييده لقضاياه دون أن يعنى ذلك وقوعه تحت سيطرته: «من الطبيعى أن يستمع العالم العربى بسرور إلى معاضدة روسيا لقضاياه الوطنية، وليس يعنيه بعد ذلك أن تكون روسيا مدفوعة إلى ذلك بدافع أنانى أو إنسانى، وهو يدرك تمام الإدراك أن البشرية ليست بها ملائكة، وأن المنفعة لابد أن تمازج كل شعور، وأن تنازع البقاء وتصارع القوى جِبلّة ثابتة فى البشر».

●●●

ثانيًا: القضايا الاقتصادية والاجتماعية

نشر محمد مندور عقب عودته من فرنسا مقالات عدة فى مجلة الثقافة، اتجه فيها إلى عرض أفكار كلية؛ وربط بين مشكلات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر ربطًا وثيقًا كما فعل فى مقال:دستور الإصلاح، بؤسنا المادى ١٩٤١/١٠/٢١. ومقال: الثقافة والديمقراطية الاجتماعية ١٩٤٣/١١/٢. ثم قام بعد ذلك ببسط هذه الأفكار المترابطة المتداخلة حينما أتيحت له فرصة رئاسة تحرير المصرى، والوفد المصرى والبعث وصوت الأمة.

وإذا كانت الشهور الثلاثة التى قضاها فى رئاسة تحرير «المصرى» غير كافية لعرض أفكاره الإصلاحية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، فإن فرصته كانت رحبة فى الصحف الأخرى.

انطلق محمد مندور فى تأمله الحالة الاجتماعية المتردية لطبقات الشعب الفقيرة من الحالة الاقتصادية، ومن ثم فإن الإصلاح الاجتماعى غير منفصل عن الإصلاح الاقتصادى. كتب فى مقال «مشكلة الفلاح»(١٤) يقول: «الأساس العام لحل مشكلة الفقر فى البلاد هو العدالة فى تمكين الأفراد من وسائل الإنتاج، وكسب كل رجل قوته اليومى بعرق جبينه».

لذلك رفض مندور إحسان الغنى على الفقير، وطالب بإعادة توزيع الثروة فى مصر، وأكد أن ذلك لن يكون بتحديد الملكية الزراعية، وإعادة توزيع الأراضى فقط، بل بإعادة توزيع العقارات والمصانع والمناجم وغير ذلك.

«إن الحل الطبيعى لمشكلة الفقر فى البلاد سيحتاج بلا ريب إلى استغلال أتم لمصادر ثروتنا، وتنمية لإنتاجنا العام، ولكنه أيضًا متعلق أشد التعلق بمشكلة التوزيع، ولهذا لا نستطيع إلا أن نؤيد الاقتراح الذى تقدم به الشيخ المحترم محمد بك خطاب إلى المجلس لوضع حد أعلى للملكية، كما أننا مازلنا نطالب بإتمام تشريعات العمال والفلاحين بوضع حد أدنى لأجورهم، وتنظيم وسائل التأمينات الاجتماعية التى تقيهم شر التعطل والشيخوخة والمرض وذل الإحسان.

ثم إننا قلنا ونكرر أنه لم تعد فى بلاد العالم المتمدين أمم لا تأخذ اليوم نظمها المادية بمبدأ التصاعد فى الضريبة غير مصر، وهذا المبدأ هو الذى سيمكن الحكومة من أن تنمى مواردها لتنهض بمرافق هذا الشعب المسكين. وثمة ضريبة التركات، وهى الضريبة الوحيدة التى تتناول رأس المال بإعادة التوزيع، لماذا لا تقرر فى نسب تصاعدية كافية لإعادة توزيع الملكية فى بلاد لا يستند فيها حق الملكية تاريخيًا إلى كسب الإنسان وعرق جبينه.

هذه هى السبل فليسلكها وليدعُ إليها من يريد فى شجاعة حل مشكلتنا الاجتماعية. وأما الإحسان، وإطعام الإنسان لأخيه الإنسان وجبة طعام شفقة به، فذلك شعور جارح لكل إحساس إنسانى، وهو خليق بأن يميت فى نفوس أبناء هذا الشعب الكريم ما فيها من

كرامة».
ويؤكد فى مقال «الحرية الاقتصادية والحرية الاجتماعية»(١٥) على ضرورة الجمع بين المشكلتين الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم الجمع بين الحريتين الاقتصادية والاجتماعية «لأن مشكلة الفقر والتحرر من استعباده إنما هى مشكلة إنتاج الثروات، وتوزيعها معًا، ولن يغنى علاج الإنتاج عن ضرورة علاج التوزيع ووضعه على أسس سليمة من العدل.. وفى المبدأ القائل بأن لكلٍ بحسب كفاءته، ولكل كفاءة بحسب ما تعمل، ما يغنى عن كافة المذاهب وهذا مبدأ أخلاقى إنسانى لا يمكن إلا أن يقبله كل ضمير إنسانى وكل تفكير سياسى نزيه».

«إن باستطاعة بلد من البلاد أن يقضى على الاستغلال الأجنبى، وأن ينمى موارد الثروة فى بلاده، ومع ذلك لا تتحقق الحرية الاجتماعية فيه وذلك لانتفاء ما سميناه ولا نزال نسمية بالعدالة الاجتماعية.

إنه من الممكن أن نتصور بلدًا من البلاد يعج بالثروات، ومع ذلك يظل السواد الأعظم من شعبه مستعبدًا للفقر مستذلاً للعوز، وذلك لأن طريقة كسب الثروات وطريقة توزيعها بين الناس لا تستند إلى أسس عادلة؛ فلا العامل يحصل على ثمرة عمله، ولا الموظف يتقاضى المرتب الذى يتفق مع وضعه الاجتماعى ومسئولياته فى الحياة، ولا أعباء ضريبية توزع على أسس عادلة، ولا الدولة تنهض بواجباتها العاجزة عن القيام بمطالبها لتأصل الآفات فيها».

وطالب مندور بتدخل الدولة لضمان كثير من الحقوق، وهو مبدأ عرف فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وظهر باعتباره رد فعل لمذهب الحرية فى الحياة الاقتصادية.
وتدخل الدولة فى الحياة الاجتماعية يتيح التوازن بين الطبقات، ورعاية حقوق كل طبقة.

كتب فى مقال «وظائف الدولة»(١٦) يقول: «فى الحياة الاجتماعية، نرى أن مصر بلغ فيها الظلم الاجتماعى حدًا كبيرًا، وإذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لإنصاف الطبقات المظلومة، أنأتى نحن اليوم ونقول للدولة خذى بمبدأ الحرية، مبدأ سميث وريكاردو، ودَعِى الفرد يعمل، والتجارة تمر؟ لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانيها كثير من الشعوب، ويااليت القوى كان قويًا بنفسه ولكنه قوى بالوراثة، فصاحب رأس المال يستغل العامل، والمالك يستغل الفلاح والناشر يستغل الكاتب، وليس لهؤلاء إلا أن تحميهم الدولة. لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمال، وهذا هو التدخل، واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى، وهذا هو التدخل، وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعمال، وهذا هو التدخل. والدولة بعدُ لم تعد حاكمًا مستبدًا، بل أداة تنفيذ لإرادة الأمة. ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته إذا أدركته الشيخوخة، أو العاهة أو البطالة، أتترك ذلك للشعب؟

يقى النشاط الاقتصادى وهنا تدور المعركة.. فأصحاب الديمقراطية الحرة يرون أن المنفعة الشخصية هى أهم ضامن للنجاح فى الحياة الاقتصادية. والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز. وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمى فى نفسه روح المبادأة، والقدرة على تحمل المسئوليات.. ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة، فهناك مصلحة الأمة، ومصالح الأفراد الآخرين، فإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر من يوفق بين هذه المصالح إن لم تكن الدولة؟

انظر مثلاً إلى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا، ماذا يكون مصيرنا إذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين؟».

ومن ناحية أخرى يشيد مندور باتساع فهم مواطنيه لقضايا الوطن، ونمو وعيهم بمشكلاته التى لم تعد سياسية فقط، واندفاع المواطنين طلبةً وعمالاً إلى ساحة النضال.. كتب عند تأسيس اللجنة الوطنية للعمال والطلبة مباركًا هذا التفاعل بين فئات الشعب، وهذا الاقتحام لقضايا الوطن المعلقة. كتب فى مقاله: «حدث خطير: اتصال المثقفين بالعمال»(١٧).

«فى سنة ١٩١٩ كانت الحرية سياسية بحتة، فليس لها إلا هدف واحد هو إلغاء الحماية وتحقيق الاستقلال، وأما اليوم فقد أصبح من الواضح أن الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التى يقف عندها الجهاد، وذلك لأن الفرد قد أصبح يدرك إدراكًا واضحًا أنه لا خير فى إلغاء الرق الخارجى إذا دام الرق الداخلى جاثمًا على صدره، وأنه لا جدوى من أن يصبح الوطن عزيزًا إذا ظل الفرد ذليلاً، بل إن التخلص من الاستعمار نفسه ليس إلا وسيلة لرفع مستوى الحياة بين طبقات الشعب، وذلك بمنع الأجنبى من أن يستغل مصادر الثروة فى بلادنا.

وليس بكافٍ أن ندافع عن قوتنا وقوت أبنائنا ومواطنينا ضد الأجنبى، بل لابد من أن ندافع عنه أيضًا ضد المستغلين من المصريين من الأثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس، وتتاح الفرص لكافة المواهب، ويفسح المجال لكل نشاط إنسانى منتج.

وهذا التفكير هو أقصى ما كنا نطمع فيه، والبلاد كانت بلا ريب سائرة نحوه، ولكنه قد ظهر أخيرًا بصعوبة واضحة، وما نظنه سيقف بعد اليوم. قبل أن يبلغ أهدافه التى تتلخص فى الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية إلى جوار استقلال وادى النيل».

«والذى لاشك فيه هو أن الأمر لم يعد يحتمل تسويفًا، فجموع الأمة عاقدة العزم على تغيير الأوضاع الاجتماعية القائمة وإعادة النظر فى الهوة السحيقة التى تفصل بين الغنى والبؤس فى مصر».

«وإذا كانت هناك طبقة كبيرة من الأمة، وهى طبقة الفلاحين لم تدرك بعدُ مدى ما هى فيه من بؤس، ولا تحركت للخلاص منه فإن ذلك آتٍ عما قريب».

●●●

الهوامش والتعليقات

(١) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٢/١١.

(٢) وقعت مصر مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ التى أطلق عليها معاهدة الصداقة والتحالف، وتمتد عشرين عامًا من تاريخ توقيعها، وتلزم مصر بتقديم كل صور المساعدة لبريطانيا طالما كانت الأخيرة فى حالة حرب. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية جدت مطالبة المصريين بإلغائها.

(٣) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٢/٢٧.

(٤) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٣/١٢.

(٥) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٨/١١.

(٦) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٦/٦/٤.

(٧) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٦/١.

(٨) جريدة الوفد المصرى.١٩٤٦/٤/١٠.

(٩) جريدة صوت الأمة، ١٩٤٨/٧/٢٦

(١٠) جريدة صوت الأمة، ١٩٤٨/٣/٢٦.

(١١) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٢/١٩.

(١٢) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٦/٧/٨.

(١٣) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٦/١/٧.

(١٤) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٤/١١.

(١٥) جريدة صوت الأمة، ١٩٤٨/٢/٤.

(١٦) مجلة الثقافة، ١٩٤٤/١/١١.

(١٧) مجلة البعث، ١٩٤٦/٣/١.

نقد

سكة العشق الأصيل

محمود الشاذلي وتنويعات علي لحني الصمود.. الولادة

فريدة النقاش

شـهدت السنوات الأخيرة ازدهارا كبيرا لشـعـر العامية المصـرية فتنوعت الأشكال وتعددت الأجيال، وفوق هذا وذاك توغل تأثيره فى الحياة الثقافية والأدبية حتى كادت قوته تتوازى مع قـوة تقدم الشـعـب إلى سـاحة الفعل والتقـرير. يمد شعر العامية جسورا إلى الجمهور الواسع لا فحسب لسهولة انشاده أو لأنه مكتوب بلغة أقرب إلى الشعب وحياته اليومية وإنما لأن توجهات الغالبية العظمى من الشعراء هى توجهات شعبية وذات مضمون متجدد دائما يسعى إلى أن يكون ثوريا ومقاوما.

وهذا هو الديوان الأول لمحمود الشاذلى الشاعر الذى يحمل لمعات من كل هذه المواصفات مجتمعة ويضيف إليها إسهامه هو : ذلك الاقتراب الصبور من اللغة الفصحى مع الإبقاء على جوهر النسيج العامى وخصوصيته ولو أننا لا نريد أن نستبعد التجربة التى أخذت

سماتها تتسع عدد مهم من الشعراء بدءا من قاعود والأبنودى وانتهاء بحسين حموده وعبد العزيز عبد الظاهر فإن تداخل العامية والفصحى وتطعيم العامية بالفصحى يعنى من بين ما يعنى أن ثمة ارتقاء موعودا بلغة الشعب هو سبيله إلى التبلور. وإننا بإزاء حساسية جديدة تتخلق ملامحها وتتسع بسرعة النهوض العام وارتفاع مستوى الثقافة العام أيضا.

محمود الشاذلى واحد من شعراء هذا الجيل الذين يصعب جدا فصل تجربتهم الكفاحية عن مجمل إنتاجهم وعن مراحل تطوره وأشكاله.. فهو ابن حى شعبى فقير هو حى «الدرب الأحمر» يتسم فقره بخصوصية مجاورته للأزهر حيث سلطة الدين وقوته الروحية القاهرة تتجسد بصورة مادية مباشرة ومجاورته أيضا لحى الباطنية، حيث يعيش فى عالم شبه سرى كبار تجار المخدرات ويصنعون محيطا من العملاء والخدم والصبية والنسوة ويشكلون تركيبة اجتماعية تحيا على عالم البناء الطبقى الصارم وتطعمه وتفرز فيه سوءاتها هناك أيضا كبار تجار القاهرة.. وهناك تتكدس المقابر بالسكان البؤساء كل طرف يتربص بالآخر وتكتسب عبارات الاجتماعية عادة أبعاد التجربة من سمات مختلفة عن أية تجربة قاهرية أخرى.

ومن بين جميع شعراء العامية من أبناء جيله تحصل الشاذلى على خبرات حياتية جديدة فإن كل واحد من هؤلاء الشعراء لم ينج من السجن لفترات طالت أو قصرت تماما كما حدث للشاذلى فإن أحدهم لم يرشح نفسه فى معركة انتخابات عامة كما فعل هو عام ١٩٧٦ حيث تعرف بصورة كثيفة وعميقة على طبيعة المزاج الشعبى وحركة الناس فى لحظة مد ثورى سبقت انتفاضة يناير ١٩٧٧ وأصبحت واحدة من الموضوعات الرئيسية بعد ذلك فى معظم أشعاره فضلا عن كونه أحد المتهمين الرئيسيين فيها هنا تتلاشى المسافة بين الهم الخاص والهم العام فيكون هذا التلاشى أشعاره التى كتب معظمها فى فترة هروبه من ملاحقة البوليس إثر الانتفاضة ، أما القصائد التى كتبت قبل ذلك فإنها تنتمى جميعا إلى مناسبات أو قضايا مشابهة أما الحركة الطلابية فى لحظات تأججها المختلفة ٧٣،٧٢،٦٨ أو حرب أكتوبر.. حتى أننا نجد ردا جاهزا على سؤال نطرحه عادة مع مولد شاعر جديد

حول وظيفة الشعر.

بين العامية والفصحى:

لغة محمود الشاذلى قريبة للغاية من اللغة الفصحى فإذا حللنا المفردات الشائعة فى شعره وجدنا أن الاستعمال الغالب لها هو الاستعمال الفصيح ولكن حين تتداخل فى الايقاع العام والحركة داخل القصيدة نجدها منحوتة من صخر الحياة الشعبية وعمقها من «الحروف المسنونة» إلى «الكلمة الجادة» إلى «البراح» بكل الإيحاءات العميقة للكلمة وتعدد استخداماتها الشعبية «وأزرع عيونى العشمانيين فى براحك الغالى / يا بلاد أتت بيا/ وسابتنى للناب القبيح/ ينهش فى لحمى قد ما بيريد. «إلى الإكثار من استخدام «الشوف» بدلا من النظر أو العين أو الرؤية فالشوف رغم استخدامها العامى كلمة فصحى فى الأصل يطعمها الاستخدام العامى بكثافة وقدرة حسية ومادية بالغة الأثر هى واحدة من السمات الهامة فى الاستخدامات الشعبية مفردات بعينها اكتسبت مع الزمن والتحولات المتباينة إيقاعا خاصا بها لتنوع فى قدرة الإيحاء ومستوى الدلالة واستخدام الشاذلى المحدد لكلمات عامية فصحى يرتبط بوشائج عميقة مع لغة البطولة وإيقاعها.

فنجد هذا المقطع الأخير من قصيدة الوصية:

- يا منشدى زدني
- فين أنت يا مسفوح على شطوط الملل
- اضفر همومك بشوقى واستمع مني
- أنا الحسام اللى كان فى غمده مستني

لحظة جموع العدا.....

إلى آخر المقطع

نلاحظ استخدام كلمات التصغير والجموع فإذا ما قارنا هاتين الكلمتين بأشواق المتقدمين فى اتجاه النزال فى المقطع الأول من القصيدة...

ما فى حديث يتسع

من سهر أحلامنا



إلا ويومه الشوق
يعزلها بعد الضنا المتحوطين بالشوق...
نجد أن الايقاع البطولى ليس استخداما لكلمات بعينها فسحب وإنما هو يوظف هذه الكلمات فى الإطار العام للإنشاد.. وخاصة إنشاد المداحين للملاحم والسير الشعبية.. الذى ينتقل فى صياغة هنا إلى وعى أرقى لأنه يكشف عن الدوافع العميقة لدى المحاصرين والمقهورين التى تفتح لهم باب صياغة الأحلام والتعبير عنها..
هنا تكتسب الكلمات العامية ذات الأصل الفصيح خصوصية جديدة ليست جمالية فحسب ولكنها اجتماعية كذلك تتعدد الأصوات فى تنظيم قصائد الديوان وتتداخل وتتحول. «تتعدد أصوات الأنبياء فى المهد» وتتداخل الأصوات فى الوصية وتتحول فى كل القصائد التى يحاور الشاعر فيها نفسه لأنه ثمة هدف واضح يجتهد للتوصل إليه.. واستخلاص مقوماته من قلب هذا البناء المتعدد الأطراف الذى يختاره.....

مفردات التراث

الشعر الحديث عامة مثقل بمفردات التراث سواء كان مكتوبا بالعامية أو بالفصحى سواء كان غنائيا أو ملحميا وسواء وظف للإنشاد أو للمسرح.. تبرز الأساطير فى أشكال متجددة.. من إيزيس وأزوريس إلى الصور الغامضة للغول والتنين، وتنزل الأساطير من عروشها القديمة والبعيدة لتتوغل فى الذاكرة الشعبية وتدخل فى صلب الحدوتة «كان يا ما كان....» وتنبثق من صلب الحواديت والصور القديمة للجن والعفاريت فى ثياب جديدة تعلم عليها قوة العالم المادى وصراعاته فتلوح جديدة أحيانا ومقحمة أحيانا أخرى...
يبعدى العنصر الدينى فى كلمات هنا وهناك فى بعض قصائد الديوان ولكنه يتوغل فى قصيدة «المهد».
التراث الدينى خاصة فيما يتعلق بالحلال والحرام
ولكن لعل السمة الرئيسية فى شعر الشاذلى بعد نسج - العامية - الفصيح هو احتشاد الصور ومقدرته الخاصة على توليدها ببساطة وتلقائية غلابة تقوم على التداعى البسيط الذى سرعان ما ينطلق من العالم المادى من جديد لتولد صورة

جديدة ولعل أبرز مثل على ذلك قصيدته الأولى رصاص الكلام التى غناها الشيخ أمام عيسى منذ ما يزيد على عشر سنوات وتبدأ بوغد الصمود إلى ما لا نهاية ثم يتحول هذا الوعد إلى صور.

«لو علقولى مشنقة/ أو حتى مليون مشنقة/ حوالين رقبتى ح افكها/ وأخذ حبالها/ وأصنع قلم/ يكتب حروف / لساعة خلاص.. يتماسك المسموع والمنظور والحس المباشر فى «معزوفة غير حزينة» «أشوف الفجر فى لحظة نعاس الغول والتنين/ يلسعنى صريخ الصبي/ فتبادل المسموع والمنظور والحس مواقعها فى تركيبة خاصة تحمل إيحاء مغايرا وتدخل فى صميم استخدامه للكلمات حين يبنى صورة.

وفى «لحن البداية» «نرى الصبح ايدين ولسان وعيون» مرة أخرى تتكون الصورة من المحسوس والمسموع والمرئى لتصب كما هو الحال فى معظم صوره فى معنى الصمود وتنويعاته وحين يلجأ إلى الحلم تصبح الصورة مركبة شريطا من الصور ويتقدم شعره فى اتجاه التجسيد الدارمي:

فى الوصية ويمر فى الحلم الشريط

«الفين وابور
هاجين من الموت الغويط
نافرين من الصمت الوجيعة
بيشقوا فى قلوب المحجور
ويمحوا فى الأرض الوديعة
عابق دخانهم فى السكك
بيطير النوم م العيون
لكن ما عرفوا ازاى وفين
يتخطوا أوحال البرك
ويعدوا من فوق الجسور».

تقود الصور إلى الألوان.. والألوان لا تحمل فسحيب دلالتها الجمالية لكنها ككل مفردات التكوين الشعرى عند الشاذلى من تراكيب وإيقاعات وحركة تقود إلى الهدف المسبق فى «المستنقع» وهى إحدى القصائد الخطابية الزاعقة لصالح مين..

لصالح مين «تشهر بالقلوب العارفة الطاهره»
تزغلل رغبتك م الشمس
ما تقدر تجابها
ولا تقدر تفاديها

فى يوم أخضر
ويوم أصفر
ويوم أحمر
ويوم ما نلتقالك لون

الألوان هى المواقف إذن.. وفى «الوصية» الألوان تحدد الخطوط الفاصلة بين العالمين النقيضين المتصارعين:

إيه يا بروجى الشمس
يا مجمع الطوابير
مالت غصون الشجر
من زحمة العصافير
أفرد دراعات النفير.. افرد
خلص خيوطنا البيض
من شبكة الأسود.

ترسم الألوان عالما يعتمد على قوة الصورة حينا وقوة المفردات القوية حينا آخر ويتوزع بينهما بما فيه من أفكار ومواقف».

«الوصية» واحدة من أهم قصائد هذا الديوان دلالة على العالم الجننى للشاذلي. وهى قصيدة حزينة تهجو الوضع الإنسانى وتفيض بالدموع الرومانسية.. لكنها سرعان ما تخرج بنا من هذه الحالة لسنهض بحرقة الدموع نفسها وبقوة الرؤيا المستقبلية بكل القوى الكامنة فى الشعر والناس فتسارع إلى التوحد مع الشعب «كنت أنا العاشق وأنا المعشوق» ومع الطبيعة التى يحويها عمل الإنسان (جيل السواعد أنا/ شمس الضحى المخلوق)

وثمة وعى عميق بالقدرة والفعالية الإنسانية التى لا تحد «اللحن جوايا/ هادر بصوت الزمن والرغبة والأسرار».... وحين تتبدى هذه القدرة جلية وفاعلة «توضع سيوف الغل فى ضعفى وفى الأغوات، من قبل كان قد بدأ نشيده مفعما عن جموح طفولى غنائى «نفسى أغنى لكل شىء/ عن كل شىء/ بلهفة الطفل البرئ فى رحلته للاكتشاف».... لكن الاكتشاف كامن أبدا فى الجموع واختيار الفعل لا الكون.. هنالك غطاء لابد من ازاحته أولا... لابد من المعرفة... الولوج إلى الكون... «واقف أنا على بابك القبلى وقفة عليل والعلة معروفة».

اللغز يحله الغناء والاستنهاض حيث يتصدر المارد - الشعب - المستقبل الذى يستصرخه الشاعر

- يا ماردى غني
- فين أنت ياللى حكمتك مني

ثم فى المقطع الأخير يتحول إلى منشد

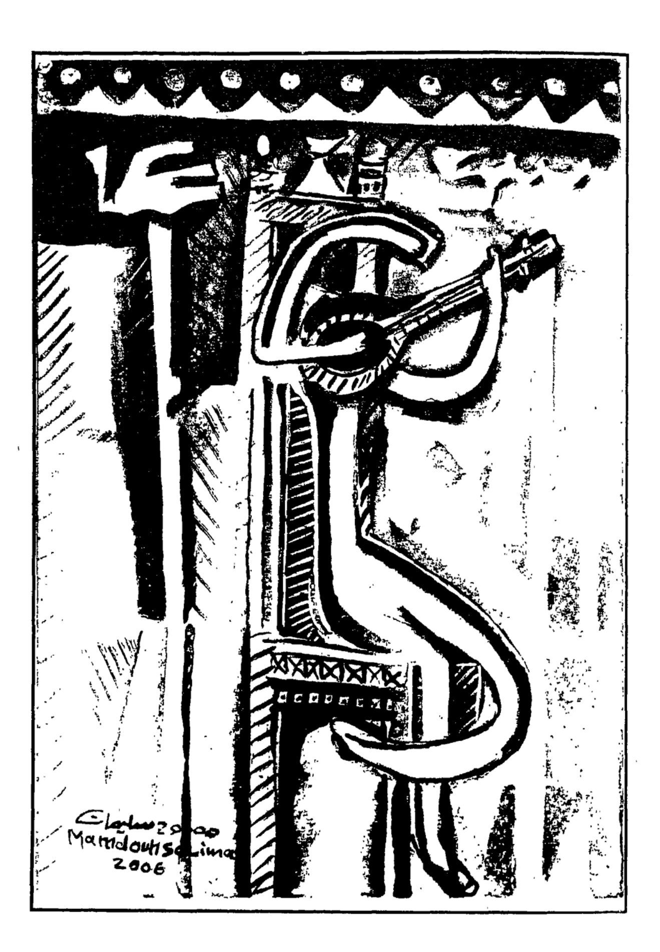
- يا منشدى زدني
- فين أنت مسفوح على شطوط الملل
- اضفر همومك بشوقى واستمع منى

يتجلى فى هذه القصيدة القوة الروحية الجامحة للشعب التى تعطى للكلمات طزاجة جديدة ومفاجئة.. الاكتشاف والغناء ينضمان إليه حيث كنوزه المكنونة وحيث هو المارد الموعود.. حيث الأغوات - الأعداء قوى الاستغلال مرادف دائما لضعف ما .. لضعفه هو مثلا لقوى المستقبل.. لهذا الاشتباك بين الخيوط الأبيض والأسود.. ولكنه اشتباك لابد منه لكى ينبلج فجر، حين يعرف الثائرون ازاى وفين «بتخطوا اوحال البرك ويعدوا من فوق الجسور».

فهل لاحت التباشير؟

ذلك سوال ضمنى أو صريح يتردد فى معظم قصائد هذا الديوان .. يا هلترى آن الأوان «نحن دائما فى انتظار العاصفة - حين تستكين الريح يفيض الأسى وينتعش

القلب والعقل فى حماية العاصفة - الوعد العاصفة - الشعب / هب الطوفان لا يبقى ولا يعفي/ هل من دليل فيكم ع يشق له المجرى؟..
تلك العاصفة الموعودة تنتشله هو الصوت المجرد المفعم بالحزن الرومانسى لحظة غياب العاصفة وأنا كنت سابح فى مدار الوهم - قبل اشتعالك بالهوى المحموم: واسم هذه القصيدة «الاختيار» فى القريب تدكى العاصفة دفقة مكثفة من الحقد. ومن تحتك رحاية غل ما يفعل م الدوران».. الحقد هنا إيجابى وخلاق لا يكل لأنه يصب فى مخزن العاصفة الموعودة حيث ينهمر الشعب - الصقر - الاله - المليك بوجوده الغامر فى كل شىء وحيث يمتلك الشاعر تلك الرؤية الثاقبة التى تجعله يتوحد مع الشعب ضد قوى القهر من طبيعة بشرية فيصبح الصوتان المتمايزان - المغنى وموضوع الغناء صوتا واحدا.
هنالك وعد بالصمود ودعوة له فى تنويعات على المعنى حيث تبرز الحق فى مواجهة الزيف..
أيه راح يعمل فينا الليل والصبح أيدين ولسان وعيون/ كل أخواتنا المرمين جوه الزنازين» ثم الصمود فى وجه خيانة الخلان والنفس التى لا يبررها أو يغفرها شىء فى هذا العالم..
يقول الحق.. لجل الكدب ما ينزاح».
ذلك التناقض البسيط الطفولى بين الخير والشر بين الحقيقة والزيف بين الصدق والكذب يكتسب معنى أعمق حين يصلها وعد الصمود وعدم الاستسلام لأى هزيمة أو ضعف هذا الوعد الذى يكمن فى كل القصائد تقريبا، ويتحرر لاختبار أليم فى تجربة الحياة ذات الطابع الوطنى والقومى فى قصيدة «سيرا بيوم» التى كتبت عقب حرب أكتوبر مباشرة. وكتب هذه الفكرة عمقا حزينا وغلابا على لسان محارب شاب:
«أبدر شبابى الحى فى طى الشقوق
وأزرع عيونى العشمانين فى براحك الغالي
يا بلاد آتت بيا
وسابتنى للناب القبيح
ينهش فى لحمى قد ما بيريد.»


2006

ينكشف السر.. فها هى الحرب الذى دفع الأولاد دماءهم وحياتهم فيها لتصبح سلعة لتجار الحرب والدماء ويكشفون عن وجوههم القبحة.

ايش لون جنايتك يا سيرابيوم

- بعد بوح السر

يتلموا تحت سقوفنا تجار الدما والعهر

ويتبادلوا مع الانخاب عروض البيع

وعد الصمود هنا يشى بمرارة الخبرة.. بوطأة الخديعة.. صوت الصمود هنا جماعى اتساقا مع كل الدلالات الوطنية والقومية للحرب وأكثر من ذلك مع الاكتشاف الحثيث لضرورة أن تكون مواجهة ذلك «العهر» جماعية.

احنا المراد احنا

لا نحتفل بالأمر حين ما تحوم الغربان

ولا تنطفى الأحزان فى قلوبنا بالسخره

ثم فى المقطع التالى.. يرتبط هذا الصمود الموعود بالعالم الآتى:

احنا المراد احنا

احنا ولاد بكرة

ورغم كل شىء إذن نرى أن التباشير قد لاحت وقد أن الأوان لكى نهزم الغربة وتتوارى الأحزان:

الدنيا مهما تجور

ومهما تدور

مرساها لينا احنا

وبساطها مطرحنا

تكون الدنيا لنا حين نختار الطريق الذى يقودنا إليها خالصة من الشرور والألم.. هذا الطريق يحدوه الشعر - الصوت الجامح:

تبارك اللى ساعة التعطش الحميمة

لومضة اختيار

ولهجة انتصار
يستل صوته من سخونة الجراح
ودقة المزاهر العليمة
يا دمنا المباح
يا لحمنا الوليمة
الرقص ع السلالم القزاز
يدغدغ الرغائب الدميمة
يضاجع المثالب اللئيمة..

الشعر وحسم الاختيار يمزجان بين الألم والفزع من سخونة الجراح ودقة المزاهر العليمة.. و«يشيران إلى الاختيار الصحيح.. للسفر من العواصف فى الفعالية الإنسانية الحقيقية من أجل عالم أجمل.

البحر فى النهور
ولا مفر
والوقفة ع الشطوط
امر
وفى الرجوع .. هزيمة

يشب وليد الانتظار والألم فى عشق السفر.. ذلك السفر الذى تتعدد معانيه من سفر الغربة إلى سفر الاكتشاف إلى سفر الريح والتغيير ورائحة الزلازل..

فى قصيدة من أهم قصائد الديوان «المهد» يكتسب الزمن الرومانسى لأول مرة معنى تاريخيا حيث ارتخاء اللجام وانطلاق السهام وارتجاف الوتر للبوح وغنائيه الاستهلال التى تدشن ولادة الجديد آه يا سلسل الروح وحرقة الحنين للشرور والأوضاع.

فى هذه القصيدة التى تستمد من قصص القران .. فى قصتى سيدنا يوسف ويونس عناصر الحدوتة خيانة الأخوة ومراوده امرأة العزيز للفتى عن نفسه ثم إضافة عنصر تاريخى آخر وقصة المماليك من تاريخهم القريب يتكرس بكثافة متميزة عناصر التحذير من الخطر ثم عناصر الاساليب فى شعره كله.. وتتعمق فكرة

رئيسـيـة تبـدو كـمفـارقـة هنا من العـفـاف والانطلاق.. وهى فكرة الاخـتـيـار الثـورى الاختيار النضالي..

ارخى لجامك يا عفيف البدن

ياللى احتمالك للعفاف غية

ارمى لجامك وانطلق فى الزمن

تتعدد الأصوات فى هذه القصيدة بين الشاعر - الراوى من جهة وبين سطلة القهر كيان - ملوك فراعنة وتلوح بينهما تلك الحقيقة الكامنة فى القصيدة الدينية والكامنة أيضاً فى منطلق التاريخ الذى يصدق أبداً.. أن الآتى يأتى والحياة دائما حبلى بالمستقبل..

يا دولة الفرعون

ما حد فوق الشط يتجاسر بمد الأيد

لكن يارب الكون

حاذر من المواليد..

النزوع الرومانسي:

يبقى المنحنى الأساسى لشعر الشاذلى رومانسيا حيث تتقدم ذات الشاعر الراوى - المغنى قلب العالم بمطامحا وعشقها الحميم فيصبح الغريب هو والباحث عن السعادة هو:

كنت أنا العاشق وأنا وأنا المعشوق/ والضمير الأساسى هو المفرد - الفاعل .. والشعب يتوحد به والثورة وطالما بقى المفاجأة والحوار الذى يقسم الراوى إلى اثنين بقيت سمات الرومانسية غائبة وحزينة وحيث اللون الأبيض لون التفاؤل والحماسة هو اللون الأساسى الذى يلحق رومانسيته بالخطابه.. بحى المراثى (وآه يا سليل الروح)...

الديوان الصغير

الكمان والعاصفة

(مختارات من شعر: محمد الماغوط)

إعداد وتقديم:

حلمى سالم

غاب الشاعر السورى العربى الكبير محمد الماغوط عن اثنين وسبعين عاما، وبغياب الماغوط تفقد القصيدة العربية المعاصرة ركنا ركينا من أركانه القليلة، ويفقد شعر النثر رائدا كبيرا من روّاده البارزين.

ولد الماغوط فى قرية السلمية بمحافظة حماة عام ١٩٣٤، ولم يكمل دراسته الثانوية، ففر من بؤس النظام التعليمى التقليدي، وانخرط فى تعليم الحياة ومعرفة الخبرة الحية، اعتقل وهو فى العشرين من عمره بتهمة الانضمام للحزب القومى السوري، وكانت تجربة السجن تجربة كاسرة للروح، لازمه ظلها الأسود طيلة السنوات.

ترك الماغوط مجموعات شعرية عديدة منها: حزن فى ضوء القمر، غرفة بملايين الجدران، الفرح ليس مهنتي، سأخون وطني، شرق عدن غرب الله، البدوى الأحمر،

كما ترك مسرحيات كثيرة منها: العصفور الأحدب، المهرج، ضيعة تشرين، غربة، كاسك يا وطن، خارج السرب، قيام جلوس، ورواية: «غيمة» وكتب فيلمي: «التقرير» و«الحدود».

كان ديوانه الأول «حزن فى ضوء القمر» (الذى صدر عام ١٩٥٩، أثناء انخراطه فى جماعة «شعر») تجربة فاتحة فى مسيرة قصيدة النثر العربية الحديثة، وتوالت بعده التجارب «من أنسى الحاج وتوفيق صايغ وأدونيس» والأجيال الجديدة التى مثل لها الماغوط شرعية ومرجعية عميقتين.

كنت، منذ بضعة أيام، أستعد لكتابة كلمة موجزة أحيى فيها فوز جائزة العويس بمحمد الماغوط، وأحيى فيها قصيدة النثر التى جعلها الماغوط تفوز بأكبر الجوائز، على غير ما يهوى العموديون والسلفيون وأهل النقل، لكن الماغوط، صاحب المعاكسة والمخالفة، عاكسنا وفاجأنا، بآخر ما فى جعبته من مخالفة ومباغتة.

الماغوط هو الشاعر العربى الوحيد الذى بدأ مشواره الطويل بقصيدة النثر، وأنهى مشواره الطويل بقصيدة النثر، فلم ينزلق إليها - كما فعل كثيرون - بعد إقامة قصيرة فى نص العمود، أو بعد إقامة قصيرة فى نص التفعيلة، من هنا، فهو عندى واحد من أكثر الشعراء مبدئية فى تاريخ الشعر العربى الحديث.

والماغوط هو شاعر النثر الوحيد الذى يستثنيه من الهجوم خصوم قصيدة النثر التقليديون، حينما يصبون طوفان اتهاماتهم الجائرة على شعراء قصيدة النثر: مثل ركاكة اللغة أو التغرب أو الاستسهال أو العجز أو انعدام الأصالة، فى كل هذه التهم «بصرف النظر عن صدقها أو كذبها» فإن التقليديين يخرجون الماغوط من دائرة الاتهام، لأنه تجربة أصيلة عميقة غائرة، ولأنه «نسيج وحده».

أعلم الآن، كم سيحزن دريد لحام (الذى شاركه «التقرير» و«الحدود» و«كاسك يا وطن»)، وكم سيحزن أبوحيان التوحيدي، فهو مثله غريب فى وطنه، وقال منذ قرون: «هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه/ ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه/ وأغرب الغربان من صار غريبا فى وطنه/ وأبعد البعداء من كان بعيدا فى محل قربه».

وكم سيحزن سعدالله ونوس وممدوح عدوان وأمل دنقل، فقد كانوا جارحين مثله، ومجروحين.

سلاما لمحمد الماغوط، الرجل الذى قال، فى حواره مع عبده وازن: «إننى أحترم كل قصيدة، حتى لو كانت فاشلة، ولا أهزأ من أى قصيدة».

وقال: «أنا شاعر مقاومة، ولكن ليس على طريقة الشعراء المنبريين الذين يصيحون ويصرخون».

ووصل عشقه المرير للشعر إلى أن صاح به: «سئمتك أيها الشعر، أيتها الجيفة الخالدة».

سلاما للشاعر الذى غنى «خارج السرب»، وكان يتقدم إلى منصة استلام جائزة العويس، وهو يردد فى سره:

«أخذوا سيفى كمحارب،
وقلمى كشاعر،
وريشتى كرسام،
وقيثارتى كغجري،
وأعادوا لى كل شيء،
وأنا فى طريقى إلى المقبرة،
ماذا أقول لهم
أكثر مما يقوله الكمان
للعاصفة».

عتابا معاصرة

الذين ملؤوا قلبى بالرعب
ورأسى بالشيب المبكر
وقد حى بالدموع
وصدرى بالسعال
وأرصفتى بالحفاة
وجدرانى بالنعوات
وليلى بالأرق
وأحلامى بالكوابيس

●●●

وحرمونى براءتى كطفل
ووقارى كعجوز
وبلاغتى كمتحدث
وصبرى كمستمع
وأطيانى كأمير
وزاويتى كمتسول
وفراستى كبدوي
ودهشتى كمسافر
وحنينى كعائد

●●●

ثم أخذوا سيفى كمحارب

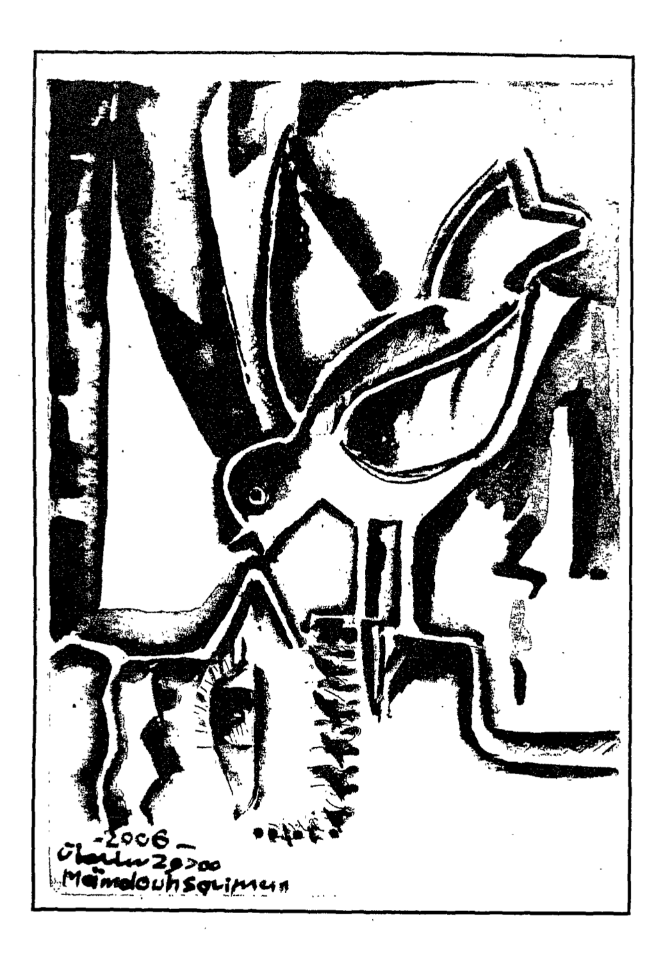
وقلمى كشاعر
وريشتى كرسام
وقيثارتى كغجري
وأعادوا لى كل شىء وأنا فى الطريق
إلى المقبرة،
ماذا أقول لهم أكثر مما يقوله
الكمان للعاصفة

الخوارج

نحن الأقلية الصامتة بين موائد
الدرجة الأولي
والأكثرية الثرثارة فى مطابخها
بناة الأهرامات المعاصرة
وأدلة الطيور إلى الأقفاص
والسفن إلى الضباب وجبال الجليد

●●●

لم نكن نعلم أبداً
إن كنا عصابة، أو حزباً، أو قطيعاً،
أم ضرباً من الجنون، والبرداء،
وأطباق القشِ، والتعليم المجاني،
والعتبات المقدسة،
والأخلاق الحميدة، وغياهب
المجهول؟؟
ولم ندرك قوتنا الضاغطة
إلا فى وسائط النقل
أو ونحن نتدافع للخروج من المدارس


-2006-

الريفية

للتبول على جدرانها من الخارج

أو فى خلاء الوطن الحبيب

لأن مخصصات الصرف الصحي

تنفق على المواكب والاحتفالات

وتنظيف سمعتنا الدولية

والرد على الإعلام العادي

●●●

كل حريق متعمد

أو إنذار خاطئ

أو محاولة اغتيال فاشلة

أو مكالمة من مجهول

أو استغاثة عاجلة

نحن وراءها

وحيث توجد جنازة

نكون بداخلها، أو وراءها!

وحيث يوجد الظلم والقهر والدم

«نكون أو لا نكون»

كما يقول الشاعر الليبى الأصل وليم شكسبير

نحن السراب الخادع فى كل صحراء

والأفعى الملتفة فى كل بير

والحلقة المفقودة فى كل درع

والقاعدة الشعبية لكل طاغية

والقاعدة الرخامية لكل قبر

والمفقودين

الذين لا يعثر لهم على أى أثر

فى كل حطام

●●●

كل انتخابات نتيجتها ٩٩ر٠٠ أو ٩٩ر٩٩ فى المئة

نحن هذا الواحد ، أو هذا العشر

فى المئة

نحن الصندوق الأسود

فى كل طائرة أو سفينة

وفى كل حزب، أو منظمة رسمية

أو شعبية

أو احتلال أو استقلال

وفى كل شركة، أو مؤسسة خيرية

أو دينية

أو محطة فضائية، أو صحيفة قومية،

أو مسرح ملتزم

قبل أن تقع الكارثة

على القارئ، والمشاهد، والمناضل

ولن نجيب على كل الأسئلة

أمام أى لجنة تحقيق

لأننا سنتحول إلى «صندوق فرجة»

●●●

كما نعرف مثلا

لماذا انتحر حاوى!
وقتل كمال خير بك بألف رصاصة
فى جبينه دفعة واحدة
وحتى من قتل لومومبا وذو الفقار
على بوتو
ولماذا أطيح بثورة مصدق
وخلع الشاه
ونصب قمبير جديداً فى المنطقة
ومن جعل عبد الناصر يدخن مائة
لفافة فى اليوم.
ونعرف ماذا جرى فى البلقان
وما يجرى الآن فى الجزائر،
والشيشان
ولماذا فصل جنوب السودان
عن شماله
ويراد فصل لحم العراق عن عظمه
فنحن نستطيع أن نقرأ بين السطور،
والجماجم والأنقاض
ونستقري، ونشم، ونستشم، ونحلل
ما يجرى حولنا حدثاً.. حدثاً
ولكنهم لا يسمحون لنا فى هذه
المرحلة،
بتحليل أى شىء، أكثر من برادنا،
وبعد موعد مسبق.

●●●

ولذلك نجلس على فوهة البركان
ونحن نتثاءب ونلعب الورق، والنرد
كما نجلس فى مقهي
حتى ينبت الريش على جناحنا
العسكري

أحلام وكوابيس

ببعض الشعر، والأفلام الوثائقية،
والصور الفوتوغرافية، واللوحات
المائية،
وبعض الموسيقى الحالمة، والناي
المنفرد..
تفاهمت مع الأفق والوحل، وريح
السموم
مع كآبة الخريف، ووحشة الشتاء
والنيازك البعيدة، وبحر الظلمات.
مع جنون العظمة
والبطولة الفردية
وانفصام الشخصية
ودوافع الانتحار
مع غربة الطيور، وخوف الأطفال
وعاهات الولادة
والحمم الطائشة
والقنابل الذكية

والسيوف البتارة
والدعاوى الكيدية
وجرائم الشرف.
مع البدانة، وإنقاص الوزن
والعضلات المفتولة، والكمال الجسماني
وشقوق الأرض، وتمزق الأقدام
مع الغابات والوحوش الكاسرة
والفيلة، والبوم المنعزل، والأحياء
الدقيقة
مع وهن الشيخوخة وترقق العظام
والأمراض المستعصية، وأدوات
التعذيب...
ما عدا غول الشعر والنثر
والطفولة والشيخوخة
والعلم والمنطق والأساطير
والحنكة ، والعزيمة، وبعد النظر:
الجوع...
إنه لا يفهم شعراً ولا نثراً
ولا يأخذ بحجة أو بينة
ولا يقدر ظرفاً طارئاً، أو مشكلة
عائلية أو مأساة عاطفية..
أو مرحلة حساسة، أو منعطفاً تاريخياً،
أو مصالح دولية، أو توازنات
إقليمية .. أو مفاوضات مصيرية
أو تقاليد مرعية، أو اعتبارات
دينية أو أحكاماً عرفية، أو دروعاً
بشرية، أو مقابر جماعية، أو نهضة
سياحية...
ولا يبالى بشرف أو عدالة،
أو كرامة، أو حرية
بيمين أو يسار، أو شمال أو جنوب.
لقد أكل كل مراجعي، ووثائقي،
ومستمسكاتي،
وجداولي، وإحصائياتي، الشخصية
والرسمية،
وخرجت من الحوار معه،
منبوش الشعر، أشعث اللحية،
ممزق الثياب،
مثل رحالة فى عاصفة رملية
لا أرى أحدا
ولا أحد يراني.
وكل دموع الفقراء الفائضة
عن حاجاتهم
وكل آلامهم وأحلامهم الهائمة
فى الطرقات،
تصب فى دفاتري، كما تصب
المجارير فى البحر.
وعلى أن أفرزها وأنسقها
حسب الأقدمية والأهمية.
وحسب مصدرها وطائفتها،



وماضيها وحاضرها.
كأى مؤرشف بيروقراطي
فى دهاليز الثورة البلفشية:
هذه للدراسة..
هذه للحفظ
وتلك للتريث.
ثم أوقع عليها بقدمى الحافية
وأغط فى نوم عميق
ووجهى مغطى بالدموع،
والملفات!!
لا..
وصرخت صرخة مدوية
ارتجت لها الأرض.
وكل ما عليها ما عد «البنوك»...
لا نوم، لا دموع، لا دهاليز بعد
الآن..
لا شيء غير.. الثورة
وجهزت جيشاً جراراً من ورق
الخريف
ودرعاً، ،سيفاً قاطعاً من ريح الشمال
وخوذة من الدموع الصلبة،
التى لا يخترقها الرصاص،
وكأن جواد الثورة،
بزينته، وأجراسه، وسرجه
الشاغر
يصهل ناخراً مستعجلاً بانتظاري
ولكن عندما وضعت يدى
على ركبتي،
وحاولت النهوض، لامتطائه...
أدركتنى الشيخوخة!!

لعق المبرد

مذ كنت فى مهدى الشعرى الأول
أعلك قصائد هوميروس، وجلجامش
وأضرب قدمى المعاجم والمصطلحات
مع الغطاء...
حاصرونى فى طروادة
وفى روما
وفى أثينا
وفى عكا
وخراسان
والفسطاط
وسمرقند، وستاليتغزاد
وقلعة صلاح الدين.
وتحت الأسرة، وتحت الجسور
وفى ممرات خيبر
وأقبية الخمور، وأقبية التعذيب
ثم حطموا كل الجدران من حولى،
وأبقوا على الأغلال!!

ولذلك أنا بطيء كالشمس
فى الحركة ،والفهم، والاستدراك،
والاستيعاب.
ومع ذلك،
أسير بسرعة ألف عقدة نفسية
فى الساعة،
فى أى اتجاه،
ونحو أى هدف..
ولذلك، فأية زنزانة بعد الآن
سوف تتسع لقيودي، وحركة
ذراعى؟
وأى قاض، أو حاكم عرفى،
أو نائب عام
سيتحمل سلاطة لساني
والرذاذ المتطاير من شفتي؟
وأى حرس، أو حراب، أو حجارة
رجم
ستقف فى وجه قصائدى المجنونة
وهى تخرج إلى الناس
عارية الصدر، والعجز
منبوشة الحروف، والعناوين
والفواصل
مثل خولة والخنساء؟
ثم ماذا تفعل سيوف الشرف الرفيع
مع الأشجار التى تتعري
علناً فى الخريف؟
وأية قنبلة ذكية أو غبية
ستلحق بى من الدمار
أكثر مما أنا فيه؟!
فأبعدوا مناديل السل عن أفواهكم
وانزعوا النظارات الطبية والشمسية
عن عيونكم
ونظفوا آذانكم من الصملاخ
ورواسب الشعر، والأناشيد
التى تغزلت بكم
ومن كل الآمال والأحلام
التى نفختم بها أوداجكم
والمسونى كضريح
وانظروا إلى كأفق
واسمعونى كهدير:
«لابد لنا فى نهاية المطاف
من فتح علبة السردين
بأصابعنا، وأسناننا!!»
ولذلك.. أهينوا من يهينكم
وجوعوا من يجوعكم
وشردوا من يشردكم
وأذلوا من يذلكم
وطاردوا من يطاردكم
واغتصبوا نساء من يغتصب نساءكم
واهدموا قلاع وحصون من يهدم

بيوتكم وأكواخكم
فليسوا أكثر مناعة من الباستيل.
وعند حدوث أى نزاع
حول شطف درج، أو تصديق
معاملة، أو شهادة حسن سلوك
لا تلجأوا إلى المحاكم ومتاهاتها
المرعبة
بل إلى الكهوف والجبال، والغابات
والمستنقعات.
فالوشايات والملاحقات والمداهمات
والجوع والرعب والقهر والعار
صاروا من «الكماليات» بالنسبة لنا .
المهم..
حتى حيوانات السيرك، وفئران
التجارب،
يجب أن لا تفقد أملها فى المستقبل،
بعد الآن...

شوارد الدم

أيتها النظرات الكسيحة بالبنفسج
يا بركة السنونو الزرقاء
لقد عاد الأرق القديم
يضرب صدغى كحطاب جبلى.

خمسون عاماً وأنا أسير وأسير..
ولم أصل إلى شىء!
هل الخطأ فى الطريق،
أم فى قدمى؟
كما أبحرت أكثر وأبعد مما أبحر
كولومبس
دون أن تلوح فى الأفق
تباشير أمريكا ، أو حتى «تانزانيا»
جديدة!!
ولكننى أعرف لماذا؟

●●●

أحب التسكع والبطالة ومقاهى الرصيف
ولكننى أحب الرصيف أكثر

●●●

أحب الغابات والمروج اللانهاية
ولكننى أحب الخريف أكثر.

●●●

أحب الزهور والرياحين والعطور
الباريسية
ولكننى أحب رائحة الغبار أكثر.

●●●

أحب الأبواب والنوافذ المغلقة
والاصطلاء على نيران المواقد
ولكننى أحب الزمهرير فى الخارج
أكثر.


Mamdouh Soliman
2006

●●●

أحب النظافة والاستحمام

والعتبات الصقيلة وورق الجدران

ولكننى أحب الوحول أكثر

●●●

أحب الشهيق والزفير ورياضة الصباح

ولكننى أحب السعال والدخان أكثر.

أحب العلم والعولة والمنطق والنطق

السليم

ولكننى أحب هذيان البرداء أكثر.

●●●

أحب حفيف الأشجار وشدو البلابل

وتغريد العصافير

ولكننى أحب أبواق الإسعاف أكثر.

●●●

أحب الحصون المنيعة والقلاع الخالدة

ولكننى أحب الأنقاض أكثر

●●●

أحب القلوع والأشرعة الخفاقة،

والصيادين المبكرين المسالمين

ولكننى أحب الأمواج أكثر.

●●●

أحب الأدب الجاد، والسياسة الجادة،

والأحزاب الجادة

والخطباء الجادين، والقضاة

الجادين، والعشاق الجادين،

والقبلات الجادة

ولكننى أحب ابتسامة الجيوكندا

الغامضة والساخرة إلى الأبد أكثر.

●●●

أحب القادة العظام والقمصان

المضادة للرصاص

ولكننى أحب الرصاص أكثر.

●●●

أحب العزلة والصوامع

والتصوف فى أعالى الأديرة والجبال

ولكننى أحب زحام الملاجئ أكثر.

●●●

أحب الحدائق المعلقة وناطحات

السحاب

ولكننى أحب الزلازل والقصف

الجوى أكثر.

●●●

أحب الهدوء والطمأنينة وراحة البال

ولكننى أحب الغيظ وصرير

الأسنان أكثر.

●●●

أحب الشمس والقمر والنجوم

ولكننى أحب الظلام أكثر

●●●

أحب المقاومة ورايات النصر
ومعارك التحرير
ولكننى أحب أرتاح للهزائم أكثر.
بل مذ كنت عاملاً صغيراً فى إحدي
ورشات البناء
كنت أسند رأسى فى لحظات القيلولة
على الخرائط ومواد البناء
وافكر بالأطلال
واليوم الذى يمر، ولا أحقد فيه علي
شعب، أو حزب، أو طائفة، أو
زعيم، أو خطيب، أو صحافي
أو شاعر، أو مذيع، أو سائق، أو
راكب، أو شارع، أو نافذة، أو
عصفور، أو زهرة، أو سحابة فى هذه
الأمة، لا اعتبره يوماً من عمرى، أو
يخصنى من قريب أو بعيد.
ولذلك للآن لا أعرف:
هل أنا مشروع كاتب؟
أم مشروع خائن

حزن فى ضوء القمر

أيها الربيع المقبل من عينيها
أيها الكنارى المسافر فى ضوء القمر
خذنى إليها
قصيدة غرام أو طعنة خنجر
فأنا متشرد وجريح
أحب المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم أستيقظ
لأفكر بركبة امرأة شهية رأيتها
ذات يوم
لأعاقر الخمرة وأقرض الشعر
قل لحبيبتى ليلي
ذات الفم السكران والقدمين
الحريريتين
إننى مريض ومشتاق إليها
إننى ألمح آثار أقدام على قلبي
دمشق يا عربة السبايا الوردية
وأنا راقد فى غرفتي
أكتب وأحلم وأرنو إلى المارة
من قلب السماء العالية
أسمع وجيب لحمك العارى.
عشرون عاماً ونحن ندق أبوابك
الصلدة
والمطر يتساقط على ثيابنا وأطفالنا
ووجوهنا المختنقة بالسعال الجارح
تبدو حزينة كالوداع صفراء كالسل
ورياح البرارى الموحشة
تنقل نواحنا
إلى الأزقة وباعة الخبز

والجواسيس
ونحن نعدو كالخيول الوحشية
على صفحات التاريخ
نبكي ونرتجف
وخلف أقدامنا المعقوفة
تمضى الرياح والنسابل
البرتقالية..
وافترقنا
وفى عينيك الباردتين
تنوح عاصفة من النجوم المهرولة
أيتها العشيقة المتغضنة
ذات الجسد المغطى بالسعال والجواهر
أنت لي
هذا الحنين لك يا حقودة!
قبل الرحيل بلحظات
ضاجعت امرأة وكتبت قصيدة
عن الليل والخريف والأمم المقهورة
وتحت شمس الظهيرة الصفراء
كنت أسند رأسى على ضلفات النوافذ
وأترك الدمعة
تبرق كالصباح كامرأة عارية
فأنا على علاقة قديمة بالحزن
والعبودية
وقرب الغيوم الصامتة البعيدة
كانت تلوح لى مئات الصدور

العارية القذرة
تندفع فى نهر من السوق
وسحابة من العيون الزرق الحزينة
تحدق بى
بالتاريخ الرابض على شفتي.
يا نظرات الحزن الطويلة
يا بقع الدم الصغيرة أفيقي
إننى أراك هنا
على البيارق المنكسة
وفى ثنيات الثياب الحريرية
وأنا أسير كالرعد الأشقر فى الزحام
تحت سمائك الصافية
أمضى باكياً يا وطني
أين السفن المعبأة بالتبغ والسيوف
والجارية التى فتحت مملكة بعينيها
النجلاوين
كامرأتين دافئتين
كليلة طويلة على صدر أنثى أنت
يا وطني
إننى هنا شبح غريب مجهول
تحت أظافرى العطرية
يقبع مجدك الطاعن فى السن
فى عيون الأطفال
تسرى دقات قلبك الخائر
لن تلتقى عيوننا بعد الآن

لقد أنشدتك ما فيه الكفاية
سأطل عليك كالقرنفلة الحمراء البعيدة
كالسحابة التى لا وطن لها
وداعاً أيتها الصفحات أيها الليل
أيتها الشبابيك الأرجوانية
انصبوا مشنقتى عالية عند الغروب
عندما يكون قلبى هادئ كالحمامة
جميلاً كوردة زرقاء على رابية
أود أن أموت ملطخاً
وعيناى مليئتان بالدموع
لترتفع إلى الأعناق ولو مرة فى العمر
فإننى مليئ بالحروف والعناوين
الدامية
فى طفولتي
كنت أحلم بجلباب مخطط بالذهب
وجواد ينهب بى الكروم والتلال
الحجرية
أما الآن
وأنا أتسكع تحت نور المصابيح
أنتقل كالعواهر من شارع إلى شارع
أشتهى جريمة واسعة
وسفينة بيضاء، تقلنى بين نهديها
المالحين
إلى بلاد بعيدة،
حيث فى كل خطوة حانة وشجرة
خضراء،
وفتاة خلاسية
تسهر وحيدة مع نهدها العطشان.

جنازة النسر

أظنها من الوطن
هذه السحابة المقبلة كعينين مسيحيتين.
أظنها من دمشق
هذه العظمة المقرونة الحواجب
هذه العيون الأكثر صفاء
من نيران زرقاء بين السفن
أيها الحزن.. يا سيفى الطويل المجعد
الرصيف الحامل طفله الأشقر
يسأل عن وردة أو أسير،
والكلمات الحرة تكتسحنى كطاعون
لا امرأة لى ولا عقيدة
لا مقهى ولا شتاء
ضمنى بقوة يا لبنان
أحبك أكثر من التبغ والحدائق
أكثر من جندى عارى الفخذين
يشعل لفافته بين الأنقاض
إن ملايين السنين الدموية
تقف ذليلة أمام الحانات
كجيوش حزينة تحلس القرفصاء

ثمانية شهور
وأنا ألمس تجاعيد الأرض والليل
أسمع رنين المركبة الذليلة
والثلج يتراكم على معطفى وحواجبي
فالتراب حزين، والألم يومض
كالنسر
لا نجوم فوق التلال
التثاؤب هو مركبتي المطهمة،
وترسى الصغيرة
والأحلام، كنيستى وشارعي
بها أستلقى على الملكات والجواري
وأسير حزيناً فى أواخر الليل

حريق الكلمات

سئمتك أيها الشعر، أيها الجيفة الخالدة
لبان يحترق
يثب كفرس جريحة عند مدخل
الصحراء
وأنا أبحث عن فتاة سمينه
أحتك بها فى الحافلة
عن رجل عربى الملامح، أصرعه
فى مكان ما
بلادى تنهار
ترتجف عارية كأنثى الشبل
وأنا أبحث عن ركن منعزل
وقروية يائسة، أغرر بها.
يا ربة الشعر
أيتها الداخلة إلى قلبى كطعنة السكين
عندما أفكر، بأننى أتغزل بفتاة
مجهولة
ببلاد خرساء
تأكل وتضاجع من أذنيها
أستطيع أن أضحك، حتى يسيل الدم
من شفتى
أنا الزهرة المحاربة،
والنسر الذى يضرب فريسته
بلا شفقة.
أيها العرب، يا جبالاً من الطحين
واللذة
يا حقول الرصاص الأعمي
تريدون قصيدة عن فلسطين،
عن الفتح والدماء؟
أنا رجل غريب لى نهدان من المطر
وفي عينى البليدتين
أربعة شعوب جريحة، تبحث
عن موتاها
كنت جائعاً
وأسمع موسيقى حزينة
وأتصلب فى فراشى كدودة القز



عندما اندلعت الشرارة الأولي.
أيتها الصحراء.. إنك تكذبين
لمن هذه القبضة الأرجوانية
والزهة المضمومة تحت الجسر،
لمن هذه القبور المنكسة تحت النجوم،
هذه الرمال التى تعطينا
فى كل عام سجناً أو قصيدة؟
عاد البارحة ذلك البطل الرقيق
الشفتين
ترافقه الريح والمدافع الحزينة
ومهمازه الطويل، يلمع كخنجرين
عاريين
أعطوه شيخاً أو ساقطه
أعطوه هذه النجوم والرمال اليهودية.
هنا...
فى منتصف الجبين
حيث مئات الكلمات تحتضر
أريد رصاصة الخلاص
يا إخوتي
لقد نسيت حتى ملامحكم
أيتها العيون المثيرة للشهوة
أيها الله..
أربع قارات جريحة بين نهدي
كنت أفكر بأننى سأكتسح العالم
بعينى الزرقاوين، ونظراتى الشاعرية

لبنان.. يا امرأة بيضاء تحت المياه
يا جبالاً من النهود والأظافر
إصرخ أيها الأبكم
وارفع ذراعك عالياً
حتى ينفجر الأبط، واتبعني
أنا السفينة الفارغة
والريح المسقوفة بالأجراس
على وجوه الأمهات والسبايا
على رفات القوافى والأوزان
سأطلق نوافير العسل
سأكتب عن شجرة أو حذاء
عن وردة أو غلام
إرحل أيها الشقاء
أيها الطفل الأحدب الجميل
أصابعى طويلة كالإبر
وعيناى فارسان جريحان
لا أشعار بعد اليوم
إذا صرعوك يا لبنان
وانتهت ليالى الشعر والتسكع
سأطلق الرصاص على حنجرتي.

سرير تحت المطر

الحب خطوات حزينة فى القلب
والضجر خريف بين النهدين

أيتها الطفلة التى تقرع أجراس
الحبر فى قلبي
من نافذة المقهى ألمح عينيك الجميلتين
من خلال النسيم البارد
أتحسس قبلاتك الأكثر صعوبة
من الصخر
ظالم أنت يا حبيبي
وعيناك سريران تحت المطر
ترفق بى أيها الإله الكستنائى الشعر
ضعنى أغنية فى قلبك
ونسراً حول نهديك
دعنى أرى حبك الصغير
يصدح فى الفراش
أنا الشريد ذو الأصابع المحرقة
والعيون الأكثر بلادة من المستنقع
لا تلمنى إذا رأيتنى صامتاً وحزيناً
فإننى أهواك أيها الصنم الصغير
أهوى شعرك، وثيابك، ورائحة
يديك الذهبيتين
كن غاضباً أو سعيداً يا حبيبي
كن شهيداً أو فاتراً فإننى أهواك
يا صنوبرة حزينة فى دمى
من خلال عينيك السعيدتين
أرى قريتي، وخطواتى الكئيبة
بين الحقول
أرى سريرى الفارغ
وشعرى الأشقر متهدلاً على المنضدة
كن شفوقاً بى أيها الملاك الوردي
الصغير
سأرحل بعد قليل، وحيداً ضائعاً
وخطواتى الكئيبة
تلتفت نحو السماء وتبكى.

الحصار

دموعي زرقاء
من كثرة ما نظرت إلي السماء
وبكيت
دموعي صفراء
من طول ما حلمت بالسنابل الذهبية
وبكيت
فليذهب القادة إلي الحروب
والعشاق إلي الغابات
والعلماء إلي المختبرات
أما أنا فسأبحث عن مسبحة
وكرسي عتيق
لأعود كما كنت
حاجبا قديما علي باب الحزن
مادامت كل الكتب والدساتير والأديان
تؤكد أنني لن أموت
إلا جائعا، أو سجينا.

من منظور اقتصادي وبعيدا عن نظرية المؤامرة

أول دراسة علمية عن:

الإنتاج السينمائى المصرى الأوروبى المشترك

أمل الجمل

الانتاج السينمائى المصرى الأجنبى المشترك كان. ولايزال من القضايا الشائكة. محل الخلاف الدائم بين عدد كبير من السينمائيين. والنقاد .. البعض يدينه ويشكك فى نواياه وتوجهاته الإعلامّيّة. البعض الآخر يُرحب به .. لكن تقييم هذه التجربة يحتاج الى التدقيق. والتروى فى الأحكام بعيدا عن المبالغة .. فالتجربة شأنها شأن التجارب كلها. لها ايجابياتها وسلبياتها .. نقاط قوة. ومكامن ضعف .. وتحتاج الى مناقشة هادئة.

صدرت مؤخراً دراسة علمية من منظور إقتصادى بعنوان: المشاركة والتعاون المصرى الأوروبى فى مجال صناعة السينما للباحثة د. دينا جلال - مدرس بجامعة قناة السويس - والبحث صادر عن مركز دراسات وبحوث الدول النامية . كلية الإقتصاد والعلوم

السياسية. قام البحث على أربعة محاور :

أولها مدخل عام للمكون الثقافى فى الطرح الأوروبى وأبعاده الإقتصادية والسياسية . وفيه ترى الباحثة أن صناعة السينما الأمريكية أدت مهمتها الترويجية فى خدمة المصالح التجارية والإقتصادية والثقافية الأمريكية خلال أكثر من خمسين عاماً مما يُفسر غياب الدور الثقافى - المرتبط بدعم الفنون والثقافات - من برنامج المساعدات الأمريكية . فى حين يهتم الجانب الأوروبى بالمكون الثقافى ليس فقط بين شمال وجنوب المتوسط . لكن أيضاً فى الحوار الأوروبى الأمريكى المعاصر. فيصل أحياناً لحد الصراع . خاصة بين أمريكا والمجموعة الفرانكوفونية وتتصدرها فرنسا. بشأن الإستثناء الثقافى .

و" الاستثناء الثقافى " تعبير فرنسى يقضى بضرورة استثناء المنتجات الثقافية وعلى رأسها السينما من شروط تحرير التجارة حفاظاً على الخصوصية الثقافية للشعوب . وحماية الأفلام المحلية من السيطرة الهوليودية . وذلك فى إطار التصدى لدعوة تحرير التجارة الدولية للسلع الثقافية. وهى الدعوة التى تطالب بإزالة التشريعات القانونية الخاصة بالقيود والضرائب المفروضة على الأفلام الأمريكية. وبإلغاء أى دعم على تلك المنتجات . مع ملاحظة اعتماد صناعة السينما وإنتاج الأفلام فى أوروبا على التمويل المؤسسى من صناديق دعم السينما والتى تقوم بدورها فى دعم الآخرين وخاصة أفريقيا وجنوب المتوسط متضمناً مصر .

فى المحور الثانى طرحت الباحثة أهم المؤشرات الإقتصادية والإجتماعية المرتبطة بدعم الجانب الأوروبى لصناعة السينما فى مصر. ومنها الاتجاه من دعم ومشاركة المبدع الفرد إلى المؤسسات الرسمية واستقطاب أطراف محلية وأوروبية جديدة ومتنوعة . لم يتوقف الشريك الأوروبى عند تمويل إنتاج الفيلم الروائى أو التسجيلى . لكن امتد التعاون إلى البنية التحتية للصناعة مثل التدريب على كتابة السيناريو وتنمية المهارات التقنية. وتدريب الكوادر الفنية خلف الكاميرا والمساهمة فى حماية التراث السينمائى بعمليات الترميم - أفلام المخرج صلاح أبو سيف - والتعاون من أجل استعادة المفقود منها خارج الحدود . ودعم المهرجانات المحلية ذات الصفة الدولية مثل مهرجان القاهرة السينمائي. وبعد أن كان الطرف الأوروبى يعنى فقط فرنسا

ظهرت أطراف أسبانية وإيطالية .

تأتى أهمية التعاون المشترك فى إتاحة الفرصة أمام الطرف المصرى للحصول على حصة فى أسواق العرض والتوزيع الأوروبية سواء فى دور العرض . أو فى القنوات الفضائية .. والمساعدة على تواجد أفلام الإنتاج المشترك الأوروبى متوسطى فى المهرجانات الدولية. والمتخصصة .. فى المقابل يحصل الطرف الأوروبى على حصة من السوق المصرية لتحقيق أهدافه الاقتصادية والثقافية المرتبطة بالدعم . وأهمها تأكيد التعددية ومقاومة الهيمنة الهوليودية. ودعم مبدأ الاستثناء الثقافى للمنتجات الفنية والثقافية عامة .. وإعادة توزيع سوق الفيلم الأجنبى فى مصر فى ظل عدم التكافؤ بين الفيلم الأمريكى المهيمن والأوروبى شبه الغائب .

نفت الدراسة قيام الانتاج السينمائى المشترك بسحب الفرص البديلة للانتاج السينمائى العربي. إذ يصعب الحديث عن رؤية أو تصور لإنتاج سينمائى عربى مشترك فى الأجل القصير. رغم وجود مقومات صناعة سينما فى مصر وصُنّاع مهرة على مستوى عالى فى المنطقة العربية. والسبب غياب القدرة على توظيف الطاقات البشرية العربية فى اتجاه تنشيط السوق العربية . واعتبرت الدراسة أن التعاون والمشاركة السينمائية مع أوروبا تقع فى منطقة وسطى ما بين "ملء فراغ ما " والإضافة النوعية للقدرات والإمكانات المتاحة . خاصة فى ظل أزمة السينما فى مصر المتمثلة فى نقص التمويل . وتراجع دور الدولة فى الدعم المباشر. وتراجع الإنتاج الكمى السنوى من الأفلام الروائية الطويلة وتراجع الطلب الخارجى على الفيلم المصرى . والفجوة بين عدد الشاشات المتاحة والمتزايدة وعدد الأفلام المحلية .

أكدت الدراسة أن الانتاج المشترك كان الملاذ والملجأ للمبدع الفرد . ولولاه ما خرجت العديد من الأفلام الإنتاج المشترك .. فإذا أمكن على نحو أو آخر إنتاج أفلام يوسف شاهين بعيداً عن التعاون المشترك. لكن من المستحيل تماماً إنتاج أفلام يسرى نصرالله ـ أسماء البكرى ـ عاطف حتاته . فهى تتمتع بقدر من الحرية لم يعد متوفراً فى الأفلام المصرية الخالصة. وبقدر من التقنية يتجاوز إمكانات الاستوديوهات والمعامل المصرية .



تطرقت الباحثة للانتقادات التى تُؤخذ على الإنتاج المشترك أنه مغلق على مجموعة بعينها لها مقومات خاصة مكنتها من طرق أبواب المنتج الأوروبي. وفتح قنوات التعامل معه. واستيعاب آليات هذا التعاون وفك شفرته .. كما أن البعض يرى أن أفلام الانتاج المشترك أقل نجاحاً بمعايير الشباك التجارية . لكن الممول الأوروبى يُقيمها فى ضوء مضمونها ومحتواها الثقافى والفنى .. وهى تضم أنواعاً تقع تحت مسميات سينما المؤلف . سينما الرؤية الذاتية أو سينما الفن . وتُطرح بوصفها الفيلم النخبوى فى مواجهة الفيلم الجماهيرى . أوسينما المثقفين فى مواجهة السينما الشعبية .

فى المقابل يرى البعض أنه لولا الانتاج المشترك ما شاهدت أوروبا ما أُتيح لها من أفلام مصرية مشتركة معاصرة . كما أن المساهمات المشتركة تعتبر من أهم ركائز الاشتراك فى المهرجانات الدولية الكبرى مثل مهرجان " كان " وخاصة خلال السنوات العشر الأخيرة . عُرض فى مهرجان " كان " ٢٠٠٤ فيلمين إنتاج مشترك مع الطرف الأوروبى لكل من يوسف شاهين ويسرى نصرالله .

البعض الآخر يتهم الإنتاج المشترك ويتطرف فى أفكاره إلى حد الاعتقاد فى نظرية المؤامرة .. أو يصفها بأنها أفلام تبيع الفلكلور أو تصدر التخلف .. لكن المؤيدين والمستفيدين يردون بأنهم يتمتعون بهامش من حرية التعبير فى أفلامهم المشتركة . مع الإقرار بهامش من التنازلات . يفرضها الواقع العملى كجزء من مضمون أى إنجاز جماعي. وكشرط لخروجه للنور أياً كان مصدر التمويل .. وتُشير خبرات الواقع العملى إلى عدم خلو أى صناعة سينمائية - مهما بدت شروطها مستقلة - من التقديرات غير الفنية التى تفرضها اعتبارات الانتاج والتسويق والتكنولوجيا والإمكانات الفنية والحسابات المجتمعية والسياسية. أياً كان مصدر التمويل أنظمة سياسية . قطاع خاص محلى . موزع خارجى . مؤسسة رسمية . أو إنتاج مشترك .

لكن يُؤخذ على الدراسة أنها تحدثت عن هامش من التنازلات يُقدمها مخرجى الإنتاج المشترك دون أن تذكر نوعية هذه التنازلات ومقدارها ومن هم السينمائيين الذين قدموا هذا الهامش من التنازلات خاصة أن المقابلات التى أجرتها الباحثة مع



المخرجين السينمائيين قليلة جداً . فقط مع مخرجة.روائية وثلاثة تسجيليين .

اختتمت الدراسة بعدد من التناقضات منها تراجع دور الدولة فى الدعم المباشر لصناعة السينما مقابل تزايد الدعم المؤسسى الأوروبى لتلك الصناعة فى مصر وبلاد المتوسط وأفريقيا.. وغياب التعاون المشترك العربى يقابله تعاون عربى "عبر متوسطى " . فى إطار منظومة إقليمية أكثر اتساعاً فى أطرافها " البحرمتوسطية " بفعل المشاركة مع الطرف الأوروبى مثلما حدث فى مشروع نساء رائدات الذى ضم جنسيات عربية مختلفة من مصر ولبنان تونس المغرب الجزائر.

الطيور المهاجرة وقصص أخرى

إيمان عبد المؤمن

إذا كان للمثقف دوره المؤثر فى مد الجسور، والتعرف والتعريف بتراث الآخر، انطلاقاً من رغبته الأكيدة فى معرفة الآخر والتواصل معه خصوصاً إذا ما عاش معه فترات تاريخية طويلة تحت مظلة واحدة .. كان فيها اندماج، وتنافر أحياناً.. تصارع، وتسامح وتصالح أحياناً أخرى، ألا وهى مظلة الحضارة الإسلامية، وإذا ما كان هذا الآخر قريبا منا.. لصيقاً بنا.. لا تصارع أو تصادم منافع فيما بيننا بل الهموم واحدة.. والطموحات قريبة.. كانت هذه الإطلالة على بعض من نماذج القصة التركية القصيرة فى العصر الجمهورى فى كتاب يقع فى ٣٢٠ صفحة، ضمن إصدارات سلسلة آفاق عالمية – الهيئة العامة لقصور الثقافة تحت عنوان (الطيور المهاجرة) وهى ترجمة عن اللغة التركية الحديثة والمعاصرة مباشرة للدكتور .. الصفصافى أحمد المرسى القطورى وهو حاصل على الدكتوراه فى اللغة والأدب التركي من جامعة استانبول وحاصل على الجائزة الأولى فى ترجمة الأعمال الأدبية والقصة التركية القصيرة من رابطة الأدب الإسلامى العالمية فى ٢٠٠٢ وهو صاحب أول معجم فى العالم من التركية

الحديثة إلى اللغة العربية، وقد عمل فى عدد من الجامعات العربية وفى جامعة صوفيا ببلغاريا ويعمل حالياً أستاذاً للغات الشرقية وآدابها بجامعة عين شمس.

ليكشف لنا الكتاب أن (فن القصة القصيرة) كنوع أدبى - بالمفهوم الغربى الحديث - لم ينسد فى تركيا إلا قبيل نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ويعتبر أحمد مدحت أفندى (١٨٤٤- ١٩١٣) مؤسس القصة الحديثة فى الأدب التركي، والذى أورد أفكاره التنويرية فى مجموعته (أقاصيص تربوية) التى شكلت معبراً بين النكتة الفولكلورية وحكايات الحيوان نحو القصة الأوربية المبكرة، ثم تابع منهجه فى التنوير فى سلسلة (أقاصيص مرحة) وتطور إنتاجه المبكر تحت تأثير الكلاسيكية الفرنسية حتى وصل إلى الواقعية التنويرية وتجاوزها، والتى خطا بها كل من سامى باشا زادة سزائى (١٨٦٠ - ١٩٣٦) ونابى زاده أكرم (١٨٦٢ - ١٩٣٢) إلى الواقعية النقدية.

ويذكر الكاتب أنه من خلال النقد الأدبى والتراجم، تعرف المثقف التركى على أمهات الأعمال الأدبية لكبار كتاب الأدب الغربى الحديث بصفة عامة، والفرنسى بصفة خاصة، مما ساعد على إنماء الذوق الفنى للكاتب والمتلقى معاً، كما تعمقت المفاهيم الفنية والفكرية للكتاب الذين اتخذوا - فى غالبيتهم - مواقف معادية لتسلط الإقطاع.. واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

ويشير الكاتب إلى تجليات القصة النفسية التى جاءت على يدى خالد ضيا أوشاقلى غيل (١٨٦٦ - ١٩٤٥)، الذى وضع الناقد الأكاديمى أ.كونراد أعماله ضمن الأدب الواقعى العالمى وفى مصاف ستاندال وبلزاك وديكنز وجوجول وتورجنيف ودستويفسكى وتولستوى وتشيخوف، لاستلهامه الأسس النقدية لروائع الأدب الفرنسى والأدبى الإسكندنافى والروسى ، بالإضافة إلى قدرته الإبداعية القصصية التى لا تنازع وامتلاكه لتجربة حياتية غنية، تغلغلت إلى الروح الإنسانية، أظهرت حساسية مفرطة تجاه التفاصيل الواقعية والهموم اليومية، كما تابعت خالدة أديب أديوار (١٨٨٤ - ١٩٦٤) التحليل النفسى فى قصصها القصيرة، وكانت هى ويعقوب قدرى قرة عثمان أوغلو القاهرى المولد (١٨٨٩/٢/٢٧) من أوائل من اتجهوا فى

أعمالهم القصصية القصيرة إلى أعماق المواطن التركى فى محيط الأناضول وقراه.
وينتقل بنا الكاتب إلى صراع (الفكر القومى) مع الأفكار والأيديولوجيات المتضادة خلال الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ إلى إعلان الجمهورية فى عام ١٩٢٣، والتى كانت الغلبة فيها للأدب القومى كنهج فى القصة، والذى انتقل من الواقعية إلى الواقعية النقدية، التى تجسد التفاعل بين قوى الشعب التركى المناضل تحت تأثير الواقع المادى المتردى بعد الحرب العالمية الأولى ومعاناة حرب الاستقلال، ثم تعمقت التيارات القومية الواقعية عامة، والواقعية النقدية خاصة، التى جسدت الصراع بين الشرق والغرب فى النتاج القصصى لهذه الفترة المتزامنة مع احتدام الصراع بين الدول الإمبريالية على إعادة تقسيم العالم.. وخاصة ممتلكات الدولة العثمانية، وعشية الأزمة العامة للاقتصاد العالمى.
ويشير الكاتب إلى ظهور عمر سيف الدين (١٨٨٤ - ١٩٢٠) كأبرز ممثلى الاتجاه الواقعي في تلك الفترة، والذى مزج فى أعماله بين الوطنية والنزعة الإنسانية العامة، ثم مجئ رفيق خالد قاراى (١٨٨٨ - ١٩٦٥) أبرز الممثلى البارعين للواقعية النقدية، الذى وظف قدرته الإبداعية ضد النظام الحاكم وأصدر أعمالاً نقدية واقعية تمثل تطوراً مرحلياً.
ويحدثنا الكاتب عن رفيق خالد قاراي، الذى عرف القارئ التركى - ولأول مرة - بقضايا الفلاح فى (الحمار الأغبي) وقضايا العمال فى (ثمن الصمت) والاعتزاز الوطني للشباب التركى فى مواجهة الدور التخريبي لجنود البحرية الأمريكية فى المواني التركية فى (مواجهة القوة)، فى الوقت الذى ظهرت فيه طبقة من الأدباء الموظفين، الذين لا هم لهم إلا إرضاء رجال النظام، الذين استطاعوا الإيحاء للمثقفين أكثر من غيرهم بالسعى نحو تخليص المجتمع من سطوة رجال الدين واحلال الفكر العلمي والعلمانى والعقلانى كوسيلة إلى خلق المجتمع الثورى الجديد، وفى المقابل على النقيض تمسك القرويون وسكان المراكز والقصبات بمعتقداتهم الدينية الصوفية.
وفى هذا الجو المتصارع، ظهر صوت (ناظم حكمت) الجديد (١٩٠٢- ١٩٦٣)، الذى بشر بالثورة ضد الجمود والاستغلال، لإيمانه الراسخ بالعدالة الاجتماعية والإخاء


Mamdouh SOLiman

الإنسانى، فاصطدم بالسيرة العسكرية، التى استطاعت خنق صوته داخل السجن لأكثر من ربع قرن.

واتسعت حلقة القصاصين الواقعيين، والواقعيين النقديين على وجه الخصوص، والتى تفرعت فى داخلها إلى تيارات مختلفة، فكان رشاد نورى كون تكين (١٨٨٩ - ١٩٥٦) الذى يقيم موضوعاته على عنصرى الحب والشفقة اللذين يهدفان إلى صلاح الإنسان ذاته، ثم فخرى جلال الدين (١٨٩٥) الذى جسد الهجائية اللاذعة فى (طلاق ثلاثة) و(الطاعون).

ويتحرك الوضع الثقافى بعض الشىء بصدور مجلة الوجود (وارلق) سنة ١٩٣٠م= ١٣٤٩هـ - مازالت تصدر - والتى استطاعت مع تيار المشاعل السبعة خلق مدرسة (الأدب الاجتماعى) التى أثرت فى كل التيارات الأدبية فى تركيا.

واشتدت وطأة ديكتاتورية الحزب الواحد.. حزب الشعب الجمهوري، فانغمس البعض فى التصوير التأملى الذى لا يحمل هماً.. واتجه آخرون بالظروف الحياتية وجهة مثالية، وعضدوا الاتجاهات البورجوازية .. وهاجرت طائفة أخرى حفاظاً على إنسانيتها وعلى عقائدها، فى ذات الوقت ظهر صمد آغا أوعلو (١٩٠٩) الذى وقع تحت التأثير القوى لدستويفسكى وصباح الدين على (١٩٠٦ - ١٩٤٨) بـ (الطاحونة) لتجسيد هذه الفترة المضطربة.

وينتقل بنا الكاتب إلى (الواقعية الاشتراكية) حيث خلقت أقاصيص (ناظم حكمت)، وأعمال (صباح الدين على) نمطاً قصصياً جديداً فى الأدب التركى وهو (الواقعية الاشتراكية) الذى يسعى إلى تغيير المجتمع، وخلق الظروف الملائمة لتطور منسجم للإنسان، من خلال البطل الإيجابى عندهم وهو الشعب، وقد جمعت (الواقعية الاشتراكية) فى داخلها مكاسب الاتجاهات الديمقراطية، حتى ذلك الوقت، فى كل فروع الأدب التركي، فطورتها، وأثرتها بقيم فكرية جديدة.

ويتحدث الكاتب عن (الفاشية)، التى أرادت إرهاب الأقلام الشابة.. الحرة، فحكمت على (ناظم حكمت) الذى نشر أعمالاً يندد فيها بالاحتلال ويحض على الكفاح، بالسجن لمدد متداخلة، واعتقلت الشاعر والرسام عز الدين داينمو، والكاتب أورخان

كمال، وحكمت عليهما بأحكام مختلفة.

وبموت مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٣٨، يبدأ عهد جديد من (الديكتاتورية الفاشية) بعد تولى عصمت ايتونو الحكم.. فالأحزاب ملغاة.. والأفواه مكممة.. فلا صحافة حرة.. بل رقابة متسلطة.. سيطرة الحزب الواحد والزعيم الواحد.

ويؤكد الكاتب أنه خلال سنة ١٩٤٥م= ١٣٦٥هـ وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدت فى الأفق إرهاصات التعددية الحزبية، وفى سنة ١٩٤٦ انتقل النقاش من السياسة والديمقراطية إلى الدين والعلمانية، وإعادة تناولهما وتوجهاتهما.

كما يشير الكاتب إلى ظهور ما يمكن أن يعتبر تمزقاً أو تناقضاً أو إفلاساً وهو نشوء أحزاب عمالية.. فلاحية.. إسلامية، نقابات عمال.. تحل .. وتعود فتظهر، صدور مجلات تقدمية.. ومحافظة، إضافة إلى تدعم موقف الإصدارات الدينية بعد وصول الحزب الديمقراطى إلى الحكم من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ أدى إلى ظهور نتاج قصصى فيما بين ١٩٤٣، ١٩٤٩ يعكس هذه الأزمات النفسية.. والضائقة المالية.. والمرضية.. فطالعنا (صباح الدين على) فى (الدنيا الجديدة) بشخصياته المستمدة من قاع المجتمع الأناضولى بمسئولية الفنان تجاه علاج مشكلات وطنه؛ وأعقبه خالى قارناص باليفچى (١٨٨٦-١٩٧٣م) بمجموعته (مرحبا البحر الأبيض) وقد عقد فيها مقارنة طيبة بين إنسان البحر.. وإنسان البر، بأسلوب يعبر عن المعرفة والذوق والشفافية والتألق الروحي، كما انخرط سعيد فائق فى كتابه القصصى (رجل لا لزوم له) فى الحياة اليومية بكل مآسيها وآمالها وتطلعاتها وفى الوقت الذى يعرب فيه (أوقتاى إقبال) (١٩٢٣) من المشاكل الحياتية، دون أن يشير إلى مخرج فى (الكنز البيزنطي)، فإننا نرى أوخان كمال (١٩١٤ - ١٩٧٠) فى (معركة الخبز) و(ولدنا) يهدف إلى الوصول إلى تشريح لقضايا المجتمع وأحداثه وفى قصته الرائعة (النوم) جسد حياة المصنع والورشة وأثرهما فى المجتمع.

ويشير الكاتب إلى أنه شهدت السنوات الأخيرة، من النصف الأول من القرن العشرين، بزوغ نوع قصصى جديد هو (القصص الهزلية الساخرة) ووصل هذا الطراز من الكتابة على يدى الساخر الباكى ، الضاحك.. المضحك عزيز نسين

(١٩١٥ - ١٩٩٥) فى مجموعاته المتتالية، التى فاقت فى إعداد طبعاتها وتأثيراتها كل تصور.

وتوالت نجاحات هذا النوع الأدبى .. خلال سنوات حكم الحزب الديمقراطى (١٩٥٠ - ١٩٦٠) وخلال هذه الفترة أيضاً تناول الإنتاج القصصى جرائم الفقر والعشوائيات فى القرى النائية والأحياء الشعبية، مما مهد لظهور تيار جديد فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة بشكل خاص، ألا وهو.. (التيار القروى)، الذى يعد خلاصة التجارب الاجتماعية ورابطة بين التراث الشعبى الحي، والفولكلور القديم.. ومزج بين لغة الشعب ومشاعره وواقعه، فى إطار من الحميمية، والحميمية، التى تعتمد على الواقعية والصدق والموضوعية فى التناول والمشاهدة الحية، وقاد هذا التيار القاص التقدمى محمود مقال (١٩٣٣) بعد أن نشر روايته الشهيرة (قريتنا) التى ترجمت إلى ما يزيد علي خمسين لغة.

مع انتصار الحرية السياسية، استهدف الكتاب أمثال يشار كمال (١٩٢٣م - ١٣٤٢هـ) بمجموعة قصصه الطويلة (الصفيحة) و(الرضيع) و(الدكانجى) و(حكاية قذرة)، وابلخان طاروس فى (حجر النملة) وبن اورخان كمال فى (بنت الغسالة) إنسان الأناضول بكل مناطقه وإينما يكون.. فى الشرق أو فى الغرب أو فى جنوب شرق الأناضول.

كما يذكر الكاتب أن عام ١٩٧٠ شهد بعض التغيرات السياسية التى أدت إلى زيادة ملحوظة فى المجموعات القصصية الجديدة، وإعادة طبع بعض المجموعات لأصحاب الأسماء اللامعة، وزاد المجتمع من رصد الجوائز السنوية لمضمار القصة، كما دخل (الإسلاميون) مضمار السباق، وتناولوا فى أعمالهم الفكر الإسلامى والأبطال، والرموز، والنقوش الإسلامية.. وتحلقوا جميعاً حول نجيب فاضل قيصه كورك (١٩٠٥ - ١٩٨٣) ومن بعده تلاميذ آخرون.

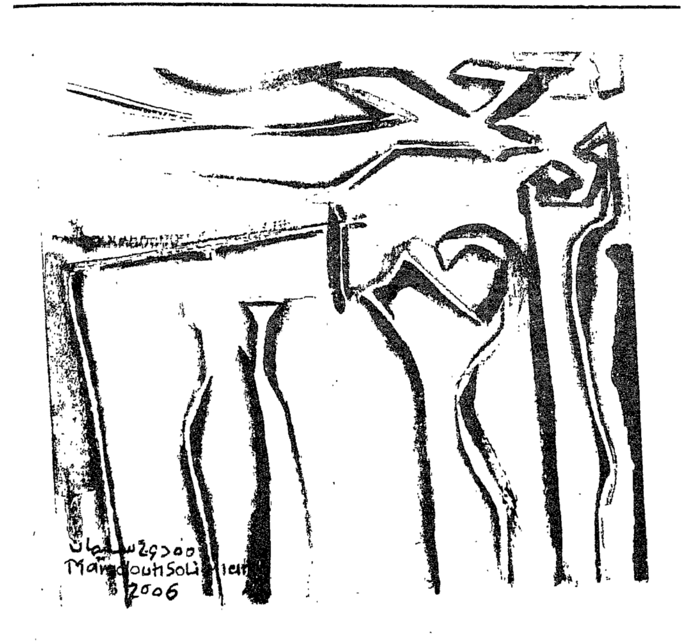
كما لم يكن (التجريديون) الذين ساروا على نفس درب التجريديين الغربيين بأقل مهارة عن سواهم، فها نحن نرى ليلى أربيل (١٩٣١) توالى إصدار أعمالها اعتبارا من ١٩٦١ بـ (الحلاج) ١٩٦١م، و(فى الليل ١٩٦٩) و(امرأة غريبة ١٩٧١) و(الحبيب

القديم) ١٩٧٧، ثم يعقبها فريد أدغو الذى جمع كل قصصه ونشرها سنة ١٩٩٣ ثم طومريس أويار (١٩٤١) صاحبة باع لا يستهان به فى إرساء مفهوم (التجريد) فى الفن القصصي.. و(نديم غورسيل) ١٩٥١ آخر التجريديين الكبار فى الأدب التركى المعاصر.

ثم يلقى الكاتب نظرة على (ما بعد الحداثة) فى القصة التركية المعاصرة باعتباره مازال مصطلحاً مبهماً فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة خاصة، ومن هذا المنطلق لا نستطيع أن ندعى أن هناك تياراً أدبياً قصصياً يجد ما بعد الحداثة فى القصة أو الرواية أو الشعر التركى المعاصر، ويشير الكاتب إلى أمثلة من أنصار تيار (ما بعد الحداثة)، وهما (نال أورخان باموق) و(جودت بك وأولاده).

ونستعرض مع الكاتب (منتخباته)، التى كانت عاكسة للوضع السياسى والاجتماعي، والبوتقة التى تنصهر فيها المشكلات الحياتية التى التقطتها حاسة القصاص وموهبته، فيتناول مع عمر سيف الدين (١٨٨٤-١٩٢٠= ١٣٠٢ - ١٣٣٩هـ) فى عملين من أعماله الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ونقد الذات الإسلامية التى تسعى إلى تحقيق المنافع الشخصية بالخرافة، ونرى (خالدة آديب آديوار) فى (الصبى همت) تمجد البطولة لدى أفراد الشعب، ونكشف عن عالم (سعيد فائق) فى (السماور) و(المنديل الحريرى) الثوري.. المفعم بالعاطفة، وننطلق إلى ريف الأناضول، الذى يراه (يشار كمال) تجسيدا لكل مشاكل الأناضول الكبير، فى عملى (الدكانجى) و(الطيور المهاجرة) لنرى رصداً لهذه الحياة وصوراً للاستغلال ونرى أيضا نموذجاً لمعاناة المرأة القروية بعد هجرة زوجها.

ورغبة من الكاتب فى أن يساعد على رسم البسمة ، بل فى إطلاق القهقهة، التى تسقط بعدها الدمعة على حد قوله، أفاض قليلاً فى نماذج (عزيز نسين) الساخر من كل فئات المجتمع التركى ومن نفسه أيضاً، محاولاً علاج أصعب المشاكل بالبسمة، فنراه عرى أسلوب الضبط والربط فى (خدمة وطنية) وركز الانتباه على المطامع السياسية فى (مجنون على السطح) وتغنى بالحرية الحقيقية فى (القطة السعيدة)، وطمس معالم الذكاء الأمريكى فى (أليس فى بلدكم حمير..!!) وعرى الاحتكارات



الأسرية والعرقية والخبث التجارى فى (مدفأة الكيروسين) وأخيراً نضحك ونغضب فى آن واحد مع (ناس ظرفاء).

ويعود بنا الكاتب إلى الريف التركى المعاصر فى (قطف الثمرة قبل أن تنضج) ليعرض علينا (فقير بايقورت) زواج القاصرات رغم أنوفهن فى الريف التركى حتى فى نهايات القرن العشرين.

نقد

آليات التشكيل فى : « صمت الرمل »

خالد البلتاجى

-١-

إن المتن الحكائى عبارة عن مادة خام طيعة فى يد السارد، وقابلة لأن تصاغ بما لا حصر له ولا عدد من الأشكال التعبيرية وفقاً لرغبته وتمشياً والاستراتيجية المتبناه من قبله نحو المسرود له، الأمر الذى دفع كثير من المنظرين لأن يولوا هذه المسألة كبير عنايتهم واهتمامهم، محاولين الإحاطة بها من جميع جوانبها سواء من حيث علاقة السارد بالشخصيات أو العلاقات التى يقيمها بمتنه الحكائى، أو بمخاطبه.

أى أن العلاقة بين المتن والمبنى، أو بين القصة والخطاب محل إشكال ودراسة.

ولقد عانى كتاب الرواية وعلى نحو الخصوص بعد نكسة الخامس من يونيه عام ١٩٦٧ من التفتت، إذ أدت تلك الهزيمة إلى نوع من التشتيت والتشويش وتداخل خطوط الرؤية لديهم جعلتهم يتبنون صيغاً سردية تتوازى فى تداخلها وتشابكها مع تعقد خارطة الواقعين: المحلى والقومي، ولذا نتجت فى الكتابات الإبداعية أعمال انمازت بالتشنج والتوتر فى الوقائع المروية من قبل سارد كان - هو الآخر - واقعاً تحت تأثير ضغوط فكرية لم يكن منتظراً سوى إبداع أشكال كابوسية.

وقد لزم هذا التفتت من قبل المبدع أن يتعامل القارئ - هو الآخر - بشىء من التراكم، وأصبحنا بين ثالوث: وعى مفتت لدى المبدع، ونص مفتت أو متراكم، وقارئ يتعامل مع النص بشىء من التراكم ووعى ذهنى حاضر.

- ٢ -

النهاية فى البداية / مبدأ الإحالة:

«لا يستطيع استيعاب ما حدث .. حاول الربط بين ما حدث بالأمس وما حدث أول ما جاء إلى هذه المدينة (ص٥). فى صباح اليوم التالى لم يذهب إلى العمل، ظل ممدداً ويقظاً لم ينل القسط اللازم من النوم...» (ص١٩٤).

هكذا تبدأ/ تنتهى رواية: «صمت الرمل» للكاتب المصرى: «محمد عبد السلام العمرى» ويحاول فى هذه السطور القليلة أن يشير إلى جملة عناصر البيئة السردية: أحداثاً. وأزمنة، وأمكنة، وشخصيات، وضمير السرد.. إلخ.

فالأحداث تتراكم ويحاول السارد تفسير ما حدث. كما يحاول الربط بين ما حدث له، وما حدث أول ما جاء إلى هذه المدينة وليلة أمس، وبالتحديد تكون ليلة أمس حينئذ - هى الزمن الخارجى أو الزمن الإطار، وكأن الرواية جميعها كانت رهن هذه الليلة.

أى إن الرواية تسير وفق مبدأ الإحالة والتعليق، حيث لا يخبرنا بما حدث له بالأمس إلا مع نهاية الرواية بعد ثلاثة عشر مشهداً، وتمتد هذه المشاهد فيما يقرب من المائتى صفحة أو بالكاد.

أى تسير الرواية وفق حركة دائرية تتعانق بالنهاية مكونة دائرة كبرى وثمة دوائر أخرى كثيرة تتولد مع كل مشهد من هذه المشاهد الثلاثة عشر.

هكذا نجد تراكمية الأحداث/ الأزمنة/ الأمكنة مع المطلع الأول للرواية، الأمر الذى يجعلنا نتذوق براعة الاستهلال، إذ استطاع الكاتب أن يضعنا فى قلب الأحداث ويقدمها لنا دفعة واحدة. وإذا كانت هذه هى القصة/ المتن. فلقد تبقى - إذن - البحث فى كيفية تشكيل الخطاب بتعبير «تودروف».

وتتداعى أحداث الرواية - هذا إذا كان ثمة أحداث من الأصل بالمفهوم التقليدى

للحدث – وعبر بنية الصمت وآلياته يطرح الكاتب كثيراً من تقنياته البنائية المختلفة ولعل أهمها: الحلم/ التداعى / التناص/ المونتاج العقلي/ الوصف.. إلخ.

ومن الجدير بالذكر، هنا أن يصبح الصمت إحدى آليات السرد ومكوناً أساسياً من مكوناته فى تشكيل هذه الرواية، فمادة «الصمت» وردت فى النص الروائى أكثر من ثلاث وأربعين مرة فضلاً عن «صمت الرمل» عنوان الرواية.

وكما هو واضح، أن «صمت الرمل» نحويا إنما يقع مبتدأ، ومضافاً إليه، أى : لا يكون جملة مفيدة، فهو مبتدأ فى حاجة إلى خبر، ولعل قصد الكاتب أن يشير إلى أن ما حدث ليلة أمس (أى جملة أحداث الرواية) هو ذاته الخبر، وربما قصد الكاتب أن يلفت نظر القارئ إلى أن هذا الصمت هو ذاته الخبر، وحينئذ يجب أن نقرأ الرواية هكذا: «هذا صمت الرمل».. ويظل اسم الإشارة: (هذا) الواقع مبتدأ إشارة/ إحالة إلى مجهول لا يتضح إلا بقراءة النص ذاته. والنتيجة تصبح واحدة ففى كلا الأمرين يحيلنا الكاتب إلى النص.

٣-١

أما عن الصمت ذاته – بوصفه أحد مكونات السرد وآلياته الأساسية كونه واقعاً مبتدأً لخبر محذوف أو خبراً لمبتدأ محذوف – فقد ورد فى النص السردى أكثر من ثلاث وأربعين مرة على نحو ما أشير إليه – وهذه المرات المتعددة لا يمكننا أن نقول إنها وردت فيها كلمة الصمت، ويصمت ، وصمتوا .. إلخ.

– نجد أن هذا الصمت قد شمل جل آليات السرد من أحداث وشخصيات، وأمكنة، وأزمنة أو كلها..

فالصمت – فى ذاته – حدث ، وأن كان حدثاً بالسلب ، لكنه سيتحول إلى حدث إيجابى فى نهاية الأمر على نحو ما سنري.

أما عن صمت الشخصيات فلم يقتصر على شخصية بذاتها وإنما شمل جميع شخصيات الرواية بشكل فردى أو جمعى..

مثال قوله: «صمت الدكتور كلكتاوى – صمت قليلاً (الضمير هنا يعود على عصمت

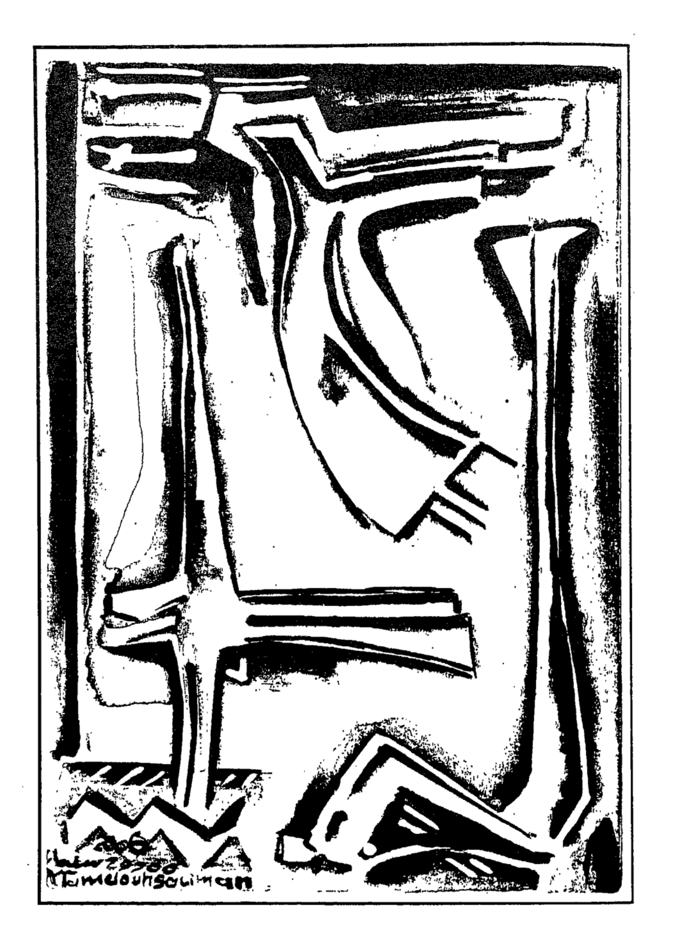
الفار)، صمت ولم يستطع أن يتحمل (عبد الحميد راجح)، صمته جذب الانتباه إليه (د. رشدى)، ثم صمتت (نورا)، وكذلك عمرو الشرنوبى - كان صمته مختلفاً فورد لنا مرة صمت العاجز عن فعل أى شيء من نوعه، ففى الليلة التى هاجمت الشرطة منزله ومكتبه وعلى الرغم من هذا الهجوم لم يكن أمام عمرو غير الصمت التام. كما نجد صمت الساخر والمستهزي، حينما دخل مكتبة أحد مستضيفيه ووجدها (المكتبة) صورة هى الأخرى من صور تعميق العزلة الإنسانية وحلية تستكمل حلية الحضارة. وأمام هذه المشاهد وغيرها لم يكن أمام «عمرو» غير كونه «يغلى بصمته» أو بالأحرى يغلى بعجزه ورضوخه لما حدث ومازال يحدث . وتنتهى الرواية على لسان عمرو «بالصمت» إذ يشير إلى ذلك قائلاً: «فصمت رغم كل هذه المشاهدات وهذه الأحداث».

كما نجد الصمت الجمعى لأكثر من فرد فيقول: «إنهما الآن صامتان واجمان». وأيضاً نجد قوله: «يا الله يا لهؤلاء الناس هادئون هكذا صامتون، مهذبون، يتحدثون بصمت يوافقون بصمت» وكأن الصمت - هنا - تسرب وتغلغل إلى هواجس الشخصيات، فسائر الشخصيات تعرضت للحظات صمت أى أنها عبرت بالصمت.

٣ -٢

كما نجد الصمت/ المكان أو سيطرة الصمت على فضاء الرواية أو أمكنتها، وتصبح الرواية مفعمة أجواؤها بالصمت الدال؛ ففى البداية نجد قوله: «ساد الصمت، مشغولاً بالتفكير، يناقش الرأى من عدة أوجه» وكأن السيادة هنا صارت للصمت وكأنه البطل، فضلاً عن سيطرته المكانية..

وكذلك نجد قوله: فيما كانت الطائرة تخفق بهم فى بحار الصمت متجهة إلى ديستراكو.. (ص٦١)، وعندما يتحدث عن الزوجة التى ربما كان يتمنى أن يتزوجها (أخت أماني) فيشير إلى هذه الزيجة التى لم تحدث فيقول: «حتى يفخر بها فى صمت الصحراء».. ثم يسيطر الصمت على أجواء الرواية، فيقول: «بدا الصمت مخيماً»، ثم يأتى الصمت من الآلة ليسيطر أو يفرض على الأجواء فيقول: أعلن ميكرفون الإذاعة الخارجية «التزام الصمت»، فهو يتوجه إلى الجماعات بأسرها -



على حد سواء - أهل المكان أو الدخلاء عليه.

٣-٣

أيضاً نجد الزمن الصامت، أو سيطرة الصمت على أزمنة الرواية. هذا إذا أخذنا فى الاعتبار أن ثمة أزمنة متداخلة فى الرواية، فمثلها يوجد فيها الزمن المرجع/ الزمن الإطار الذى يحكم القصة من البداية حتى النهاية. نجد أيضا من الخطاب. أى : الأزمنة الداخلية تلك التى تتزايد وتتعدد وتتداعى حسبما يرى الراوى أمكنة جديدة أو شخوصاً أو أحلاماً تتداعى حسب المونتاج العقلى أو الحلم.. إلخ.

أما نماذج الصمت على زمن الرواية والأزمنة الأخرى المتداعية.

كما يسيطر الصمت على سائر المخلوقات الأخرى غير الإنسان فى الرواية: فيقول الراوى عن الكلاب: «لا تفتأ تصمت حتى تواصل من جديد». ويجسد الصمت تجسيداً مخيفاً كى يضيف إلى فزعه وخوفه فزعاً وخوفاً جديدين، فيقول: «وبدا الصمت فحيحاً».

٤ - آليات الصمت وتشكيل بنية الرواية: ٤ - ١ الحلم

رأى القدماء أن الحلم صورة ترد عليهم من عالم ما فوق الطبيعة، وسائل إلهية فوق مستوى البشر، إلى أن جاء «أرسطو» بتفكيره العلمى فكان أول من أرسى وجهة النظر النفسية فى دراسة الأحلام وأنها ليست رسائل إلهية، بل هى نشاط نفسى يصدر عن النائم بحسب الظروف التى يكون عليها فى نومه.

بينما يرى بعض العلماء أن الحلم ما هو إلا استئناف على نحو ما لحياة اليقظة، وإذا تأملنا أحلامنا وجدنا استمرارا من نوع ما لما يجرى فى حياتنا التى تشغل تفكيرنا.

وهكذا فإن الأحلام ما هى إلا استمرار لسرمدية حياة اليقظة. واستطاع السارد فى رواية «صمت الرمل» عبر المادة الحلمية التى وردت حوالى ثلاث مرات فى النص السردى أن يقدم لنا الرؤية الروائية مرة ثانية ولكن من وعى الكاتب أو من خلال اللاوعي، فإذا كان الحلم الحقيقى يمثل اللاوعي، فالحلم العقلى أو المونتاج العقلى

يمثل وعى الكاتب، فهو يقظ وفى أسمى درجات وعيه ونشاطه الذهني. ولا يمكننا فصل الحلم عن المونتاج فكلاهما يكتمل فما جاءنا فى الوعى يعمقه الحلم أو العكس بشكل أفقى فى الوعى يأتى فى الحلم بشكل رأسى وهكذا.
ومثال ذلك:

- **الحلم :**

نجد فى بداية الرواية تساؤل عمرو الشرنوبي: لماذا حدث كل هذا؟ ولأنه يحيلنا إلى مجهول ولا يتضح لنا ما حدث إلا مع السطور الأخيرة من فشل وهزيمة واستسلام ورضوخ يأتى لنا الحلم الأول استشرافياً، حيث يحمل ما سوف يحدث عبر هذا الحلم/ اللاوعى يقول فيه: (ص١١) «أخذته سنة من النوم، رأى فى إغفاءته حلماً، غيمة ودخاناً وضباباً يحيط به، كلما انتقل من مكان إلى آخر وجدها فوقه، تتبعه أينما رحل، يراها فى حالة صراع وجلبة وصلصلة كأن مادتها الحديد والاحتكاك، كأنها الجنازير تلتف حول معصمه وساقيه ورقبته وعقله، كلما ذهب إلى مكان وجدها تحوطه مبتعدة عنه أحياناً، تتعقبه أحياناً كثيرة، يحاول التوارى والهروب دون جدوي، يجدها متربصة، أصبح رجلاً مسناً متزوجاً وله أولاد، أبيض فوداه، وخط المشيب شعره، أصبح شيخاً ملزالت تتعقبه، عاش حيناً من الدهر زاد كثيراً عما توقعه لنفسه فى محاولة الفكاك، لاحظ أن التعب لم ينل منه، وكلما رآها زاده هذا قوة وتجدداً».
هكذا نجد الحلم يدور فى حركة دائرية عبر الأفعال المضارعة التى تتصدر كل جملة من جمل هذا الحلم تماماً كدائرة الطوق الذى يلتف حول معصميه، وساقيه، ورقبته، وعقله. ففى المادة الحلمية ذاتها نرى الدائرة المحكمة عبر المادة اللغوية أو الأشكال الكابوسية/ جنازير تلتف، لكن يبقى الأمل، ففى نهاية الحلم على نحو ما رأينا أنها لم تنل منه بل زادته هذه القيمة قوة وتجدداً.
ثم يأتى لنا الحلم الثانى الذى ينقل لنا الراوى فيه ما وصلت إليه هذه المدينة التى يعيش فيها من تخلف وجمود ولم يكن ازدهارها سوى ازدهار شكلى أجوف أيضاً يأتى لنا حلما استشراقياً يعمق على المستوى الواقعى بعد ذلك، وربما ينصهر الحلم

الواقع فى السطور التالية مباشرة للمادة الحلمية، ففى الحلم نجد قوله:
أخذ سنة من النوم، فلم ير فى أحلامه إلا طوفانات إثر أخري، كتباً منحدرة تجرفها السيول، رأى المغول ونهر دجلة مليئاً بالكتب وهارون الرشيد والمأمون ينقذان ما تبقي، أخذ على عاتقه مساعدتهما يعمل بهمة وإخلاص شديدين، العرق يتصبب منه أحس أن طاقته وهنت ونفدت فاستيقظ راضياً عما قام به» (٤٢).
فإذا كان الحلم يفرض علينا أو يرجعنا إلى واقعة هجوم المغول على بغداد وغيرها من العواصم العربية والإسلامية وإحراقهم لأهم المكتبات العربية وأعظمها - فعلى المستوى الواقعى نجد زيارة السارد/ عمرو الشرنوبى لأحد مستضيفية فى هذه المدينة ويجد كتباً كثيرة ومكتبة ضخمة لكنها على الرغم من هذه الضخامة والجمال لا تزيد الإنسان إلا عمقاً فى غربته وعزلته فكلها كتب تتحدث عن الموت وتمجد الشيطان والقبر وعذابه.. إلخ.
أيضا ينصهر المستوى الواقعى / الواعي/ مع المستوى الحلمى اللاوعى فى الحلم الثالث (ص٧٦،٧٧).
فعمرو الشرنوبى يتقابل فى الواقع مع سناء ويحدث بينهما ما يحدث من تعبير عن الحب والمشاعر الفياضة إلا أنه يراها/ واعياً، حزينة تتألم فيقول: «ثمة انقباضة قلب، أسى وحزن وشجن، قلق يجتاح هذه الإنسانة البالغة الرقة، بدا أنها ترتعش.. إلخ».
يأتى الحلم ليعمق هذا الحزن ويفسره،(٧٧): جاءته فى الحلم صامتة وحزينة، استيقظ ملفوفا بطبقة رملية كثيفة وناعمة، لها سمك وحجم، ترتفع فى أماكن عن أخرى تئز الرياح فى الخارج، ألواح الزجاج تصطك مع حلوق الشبابيك، تسرى القشعريرة فى جسده، سحابات الجير المترب تحجب أشعة الشمس، تجعل السماء قريبة، تتساقط الأمطار جيرية ناعمة، حاول أن ينأى عن غائلة الريح والمد».
ثم يعود بنا إلى المستوى الواقعى ليؤكد ما حدث فى الحلم، ويصبح حينئذ الحلم استشراقاً لما سيحدث ففى الصباح: يذهب عمرو إلى سناء كى يذهبا ليشتريا لوازم الزواج يجدها قد تم ترحيلها إلى مدينة جارثيا.. وكانت الخطوة الأولى لترحيلها كلية إلى القاهرة..

عصافير وزهور

شعر: سارة كيرشى

ترجمة: عبد الوهاب الشيخ

ولدت الشاعرة الألمانية الكبيرة سارة كيرشى عام ١٩٣٥، وتعد أبرز شاعرات جيلها. هاجرت إلى برلين الغربية عام ١٩٧٧ احتجاجاً على سحب الجنسية من مؤلف الأغانى فولف بيرمان. وهى شاعرة غزيرة الإنتاج تتناول فى قصائدها الحب والطبيعة من زاوية مختلفة، حيث تركز على التوازن بين ما هو إنسانى وما هو سام، بين الثقة المفرطة والكآبة، بين التكنولوجيا والطبيعة. من أحدث مجموعاتها الشعرية:

«أنا كروز» ١٩٩٥

و«بلا قرار» ١٩٩٦.

شموس

الآن حيث حل الصيف
للتو، ليست لدى أية
شموس. ولكن فى الشتاء كان لدي
منها أكثر مما أردت.
حتى أنه ذات مرة كانت هناك سبع شموس
فى السماء، شكلت
الجوزاء لأجلى.

كل شىء عصافير وزهور

فى ضوء القمر أسمع صوت
تعثر وسقوط
لقد ترك
أحدهم النجار يأخذ
المقاسات. آه

العتمة تدوم
وتدوم. إذا شهدت
الصيف سأحيا
راقصة.

موج ماء

كائن ليلى يلوح مبكراً على الطريق
تمرق العرسة فى فرائها الملكي
منزلقة على حذاء تزلج دقيق

تطير خلف البومة في
غابة المستنقع. تلك التى سماؤها خضراء

موسيقى شتوية

ثعلباً أحمر كنت
ذات مرة، بوثبة عالية
أحصل على ما أريد.

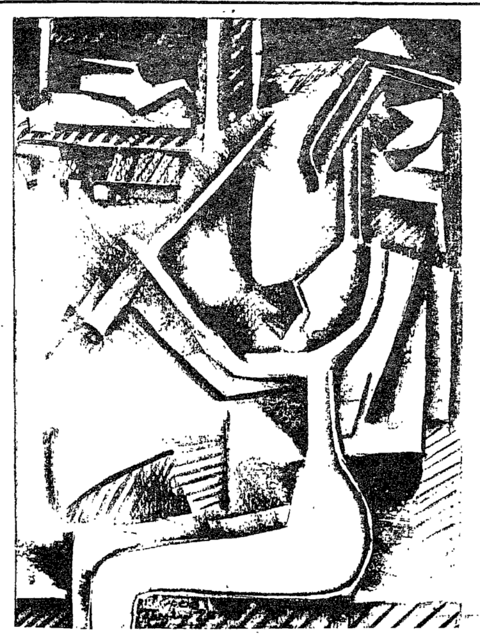
رمادية «أنا الآن أمطار» رمادية
نجحت فى الوصول إلى جرينلاند
فى قلبي

فوق الساحل يلتمع حجر
مدون عليه: لا أحد يعود
هذا الحجر يختصر حياتى

أركان الأرض الأربعة
يغمرها الأسي. الحب
مثل قرقعة العمود الفقرى.

سناج

السياح فى النهاية
قد ماتوا. يطيب لى الذهاب



عبر المستنقعات . سرب أوز
يمتد طويلا . ثلج متطاير
فى باب ثلاجة مفتوح
علب بنزين وويسكي
ريح «صافرة» ثرثارة.

شعر

وجه الغزالة، ماس جدائلها..

(إلى فارس عودة)

عبد الناصر صالح

ولد معجزة..
عاد من نومه تحت ظل الصفيح
وأودع أحلامه غيمة،
وعصافير تعبر صوب المخيم
رتب أشياءه في الحقيبة:
أقلامه
صورة الأهل،
رائحة القمح
واجبه المدرسى،
بشاشة وجه المعلم أو عنفه حين يغضب
رهبته حين يفشل في حل أسئلة الامتحان،

وفرحته حين يمضي إلي الجائزة.

●●●

ولد معجزة..
يفتح الآن نافذة الشمس
حتي تضيء ذؤابتها أيكة الصدر،
يبعث أغنية للغزالة
وهي تجوب الزقاق علي هدي أنفاسه
(يتذكر:
وجه الغزالة مفتتح لليراعات
حين يجف الكلام،
يسيل الهواء دماً صافياً)
يتهيأ للصحو..
أى الدروب سيسلكها دمه؟
أى قنبلة ستفجر رأس الفتي
وتميط اللثام عن الجرح
(والجرح أوسع من دورة الأرض
والقلب أكبر من لهفة الغائبين؟)
يتهيأ للصحو..
قال الفتي وهو ينفض أعباءه:
لَيس يأخذني النوم من يقظة السيف،
لا وقت للنوم،
لا وقت للانتظار قليلاً لكي تعبر الحافلات،
عقارب ساعته سوف يدركها الوقت
والأصدقاء - يجيئون
يتجهون إلي أول العمر:

راياتهم
والنشيد المؤجل،
والشجر النبع والقدس والعرس
والطفل يصعد أدراجه الجاهزة.

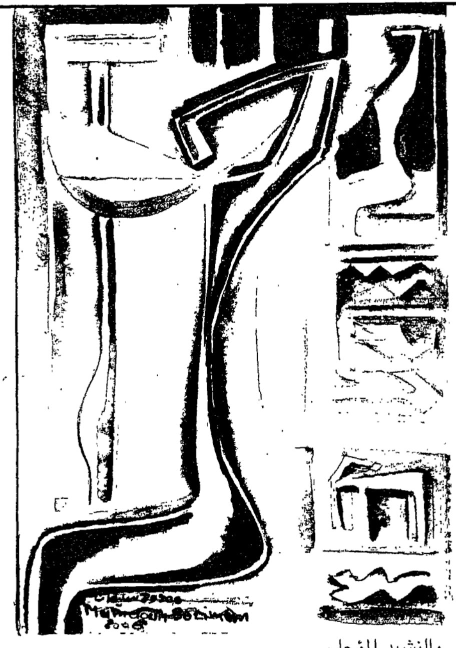
●●●

إنه الولد المتماثل في طلعة النجم،
والوطن - الحلم ديدنه
عائد من فصول الشقاوة،
ما ألقت الحرب أثقالها لينام.
ومازال سرب الحمام
حزيناً علي شرفات النوافذ
يحرس قلب المدينة،
يؤنس وحشتها
وهي تعبر أشرعة فوق نقع العواصف
أي متاريس يعبرها الطفل،
أي ميادين سوف يعانقه رملها؟
أى طلح سيلمس أهدابه؟
في أى زاوية سيعد الكمين؟
تراءى له ظله في الحدائق
صوت غزالته،
وجهها المتألق،
ماس جدائلها
شكل أصحابه يقطفون الحجارة عن شجر البرق
- لم تكشف الريح أسرارها بعد
(فلينكسر خوفه بالغناء المضرج بالشوق

وليـنطلق صـوته بالصـهيل الذي يتوحد)
أيلول شـهر المخاض
وفاتحة للبهاء الطليق ومئذنة الضـائعين،
فأي صـلاة يؤدي الفتي
قبل أن تبدأ الأرض زلزالها؟
أى نشيد سيتلو علي تلة
في حطام البيوت؟
وأى الرسـائل سوف يحرر؟
قالت له أمه:
- هل رأيت علي السفح زيتوننا؟
ذات يوم سيكبر
ذات نهار ستجري القصـائد في النهر.
- والسماء البعيدة هل يعمر اليوم أبوابها؟
- سوف يعمرها العندليب
وتنبت أزهارنا الحجرية
أكثر من مطر قد يجئ.

●●●

ولد الريح والظمأ - الجوع
والبرد والحر،
والكر والفر
والكبرياء.
ها هو الآن مستغرق في البهاء.
ها هو الآن ينتظر الأصدقاء.
يجيئون أسرع من غمضة العين،
أعلامهم



والنشيد المؤجل،
نكهة أسمائهم في الخرائط
لهفتهم لاستباق الخيول إلي موقف الحافلات،
هو الآن مزدحم بالحياة
وقد فاز بالجائزة.

(طولكرم – فلسطين)

شعر

بكل وضوح

محمود خير الله

يا من تعيشون هنا
لا تصدقوا الأبيض الذى فى السماء
إنه فراء زوجة الرئيس
بعدما علقته على شماعة الرب

وإذا صادقتم أسداً
فى حديقة قصر
كذبوا عيونكم
لأنه مجرد صديق مخلص
لسعادة الرئيس
تأكدوا دائماً من كل شىء
انظروا - مثلاً - إلى سجاجيد القصور
وهى تنبض تحت أقدام الوفود الأجنبية
إنها شعيرات بناتكم العذارى،
وإذا غفا الواحد منكم
فى حديقة عامة
ورأى قتلى ومخبولين فى الشوارع
فلابد أن يفهم
أن هؤلاء
هم الذين قطبوا فى وجه الرئيس.
حتى الماء
لا تصدقوه
رغم أنه يزحف أميالاً على بطنه
ليدخل أبدانكم
ليس إلا
دموع الملايين الذين جاءوا



لكى يتعطر أحفاد الرئيس.
وإذا رأيتم عارية – فى الطريق العام –
فلا تظنوا أهلها طردوها
إنها تمرن «المعارضين»
على محبة الرئيس،
وإذا رأيتم بائع الحليب المخادع
يهدر دموع المظلومين البيضاء
هكذا بأسعار رخيصة

أصرخوا فيه،
ولا تصدقوه
لأن شيئاً فى هذه الحياة
لا يجب أن نصدق
حتى هذه الملايين الجائعة
تهرب دائماً من أمامى
لدرجة أننى لا أراهم
لا أراهم بوضوح.

شعر

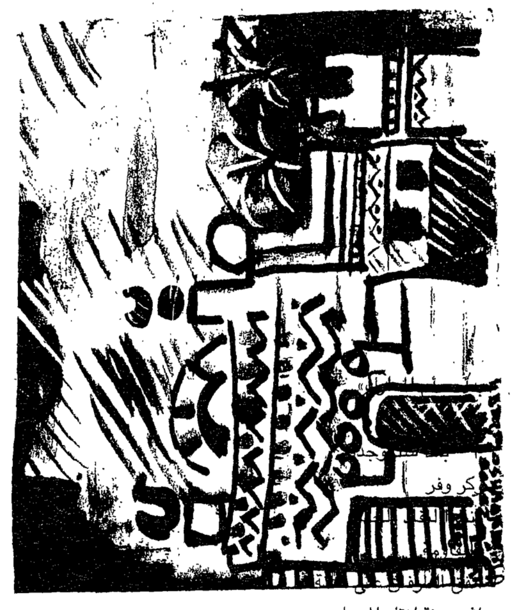
خداع

صلاح جاد

١ - بمهارة قرصان متمرس
وبخبرة امرأة مجربة
كذب عليها فى عمله وزواجه
وكذبت عليه فى عمرها واسمها
قبل أن يفترشا عشب الحديقة اليابس
ويسلم لجذع نخلة عريقة ظهره

٢ - أمام المرآة
أخذت تصفف شعرها
ترش عطراً نافذاً
تحت أبطيها وأذنها
فى قميصها القصير الأسود
بإشارة سريعة





إثر هدنة لنقل المصابين

وإجلاء الشهداء.....

والقتلى......

يوميات حذاء

سامح محجوب

(١)

للأسفلت النازف صمتاً

أهدى وردة روحي

وجه الطفل الهارب من مرآة حتوفي

اسم حبيبة عمرى

واسم الأطفال الجوعى تحت سماء مدينتنا

اسم رفاق الطرق المنسية

ميلاد العشب.. ميلاد الخبز..

ميلاد الحرية

للأسفلت النازف صمتاً أهدى اسمي..

(٢)

يرفونى شوقى ورداً

ترفونى الليلة شرفة
هل يفشى الورد السر؟
هل تحكى الشرفة عني؟
أنا ناى الغربة.. لا يعرفنى الورد الناعم
لا تنظر نحوى الشرفة
حين أمر حزيناً وحدي
أنا وحدى فى هذا العالم وحدى
يذرونى الريح الجائع نغماً
مجروح الوجد

(٣)

هل تمنحين الفارس المهزوم صدرك
كى ينام
هذا أوان الحزن يسعل فى فضاءات الغمام
تعب الطريق من المسير
يا صاحبى أغلت الأحزان
أسراب الطيور
عيناك مأواى الأخير
يحط فى دفئيهما القلب الكسير
هذا أوان الحزن ينشج فى تجاعيد الكلام
هل تمنحين الفارس المنفى صدرك
كى ينام

(٤)

نامى على دقات قلبى الباكيات بلا عزاء



واستدفئى بملامحى إن ضمنى صخب الفناء
الليل يعوى فى دمي
والشارع المحزون يصرخ
فى حذائى
وأطالع الوجه الملبد بالخريف على زجاجات المساء
ألقى السلام على جهامته
فيجهش بالبكاء
فألملم الدمع الكظيم من التسكع فى العراء
وأشير فى صمت لبعض ملامحي
الكانت تسير على الرجاء

المرايا

خالد حريب

هتفت قدام المرايا
شعار بيجرح الحنجرة والكون
ويرد لى اعتباري
نتبادل الابتسام مع بعض
نلمع شعرنا بفازلين
فى المرايا
يظهر الحيط من ورايا
فاسد.. مستبد
برواز عليه لسورة الفاتحة
كلمة «آمين» كبيرة خالص
تستخبى عينى فى الهتاف واليفط والدم
والشرار اللى بينط من عين العساكر
ترتاح ملامحي
من أثر الكريم المعطر باللمون

القميص كان فيه زرار مقطوع
من زحمة الناس في الميدان
غطيت مكانه بكوفية
وابتسمت للمرايا
غطيت قزاز المرايا باتسامة تمام
ابتسم صاحبى اللى جواها
وانكشفت
كان ميعادها فاضل عليه ساعتين
وكان آخر ديسمبر مطر
افتكرت
أنى محتاج ورنيش للجزمة
لما خلعت الكوفية
شفت الزرار موجود
وصوتى فى الحنجرة ميت

امرأة واحدة

سامى الغباشى

امرأة واحدة.. تسرف فى طاعتك

امـرأة واحـدة.. تهـدهد رهـبـتك إن عـدت مـجـروحـاً بالمعرفة

امرأة واحدة.. تضمد وحدتك إن أرهقتك المقاهى

امـرأة واحـدة.. تكنس أجـسـاد البنات من عـينيك إن تزاحمن

.... أو ارتمين اشتهاء على صدرك..

امرأة واحدة.. تطهر قلبك إن عبثت به الأخريات

امرأة واحدة.. لا تصدق غربتك

امرأة واحدة.. شساعتها وطن

امرأة واحدة.. ترفض أن تسميها وطن

امرأة واحدة.. راحلة فيك وراحل فيها

.. .. فأيكما المغترب.

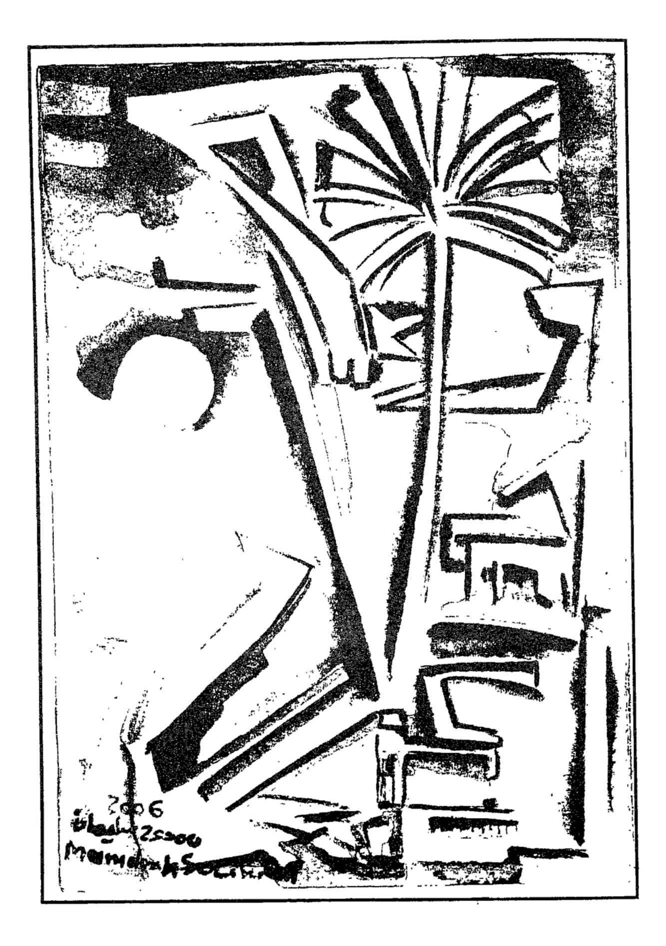
الحصان

ناصر دويدار

طلقة رصاص
يمكن تكون رحمه....
يمكن تكون الخلاص
من نظرة الشفقة
يمكن تكون نهاية مؤلمة
يجوز يكون المشهد الآخر أنى حزين
لكن أكيد
إنها..... اختصار للسنين
الجاية المرعبة
طلقة رصاص
هى أكيد رحمة

ماتبصش على وقفة الدبان
فوق عين الحصان وهو متمدد
فى بركة وحل

ماتبصش لجلده المكرمش
وديله اللى كنا بنحلف
بطوله وجماله وحلاوته
فى شعر البنات
وكبرياء رقبته اللى نايم
ودايس عليه الجراد
وما تستغربش نومته
فى عرض البلاد
دا كان زمان
فرس النبي
والصحاب
وياما ضهره شال بلاد
وحط ف بلاد
وعمر بلاد
وهاجم لصوص
وغير خرايط
وحافره ده فجر زمان
بحور الإيمان
الأمان
الحنان
وكأن له زمان
عشيرة وأهل
عمومة وخلان
وكان له عيال تسد لشموس
وكان له صهيل يهد الجبال
دا كان السيد.. الحصان


2006

ماتستغربوش
دى صورته
ف أول سباق للخيوال
فى أول طريق الحياة
دى صورته
رقبته.. وفخده.. حوافره.. سنانه.. دماغه
وطوله وعرضه ونظرة عيونه البعيدة وهى بتلمع
دى صورته
وآخر السباق
وصل له لوحده
مفيش حد جنبه
دا كاس الوصول بيلمع لوحده فى آخر السباق

صحيح إن نومته تحزن
تكدر
تيأس
تحطم تكسر
لكن الحقيقة
بأن الرصاصة اختصار
السنين اللى جايه
السنين اللى ترعب

سنين المعيز
الحمير
الكلاب
ماهياش سنين الحصان

شعر

الجواد

محمد حسن على

سقط الجواد وأنت تستبق الخطي
تعدو إلى الحلم الذي
جابهت فيه الشمس والليل الخئون
سابقت أفراس النهار
وحطمت قدماك أجنحة الرمال
وبعثرت أنفاسك اللهفى رياح
أقسمت أن تصطفيك
سقط الجواد وأنت قديس كليم
ترسم الشرق الضياء بلا ظلال
وتعيد نجماً قد خبا فى أعين العشاق
تفتح فى حوائط عمرنا باباً لنأتلف الضياء
لكن حلمك سيدى ضل الطريق لمبتغاه

فالسحر ضاع من العصي
والبحر خان
قد شيدوا من ملك قارون القصور
وأوقدوا فى الطين
ما كنت أول راحل بدأ المسير
لكنك الحلم الشفيف
ما كنت أول مبعث للقانطين
لكنك الفرس الوحيد
بالله ماذا الآن تلمح فى العيون
الحزن إكليل يطوق حول أعناق السنين
العار وشم فوق أفئدة العذارى التائهات
واليأس وجه سافر فى ظلمة الليل القمئ
سافرت...
ما كانت حدود الكون أرحب من سماء تصطفيك
ولا رؤى الأحلام أعذب من عذارى تشتهيك
ما كان نبضك شاهداً أن الحياة بنا على درب تسير
ما أتعس العمر الذى يمضى بنا والنبض منكسر ذليل.

قصة

مخلوقات صغيرة

سعيد عبد الموجود

يسير كما يسير دائماً، ضوء المحطة التى لم يبعد عنها كثيراً يكشف الظلام، يستطيع أن يرى الحصى والعشب النابت بين الأحجار والقضبان بوضوح وأيضاً هياكل البنايات تحت الإنشاء التى يتجه إليها، رآها أثناء النهار وهو يسير هناك، قرر أن يبيت فيها ليلته عندما يحين الليل، لم ينم بين جدران من زمن، كره الجدران منذ تلك الليلة ولكنه اليوم حن للدفء نسائم الشتاء الباردة تلفح وجهه، لا يعرف لماذا يتذكر أمه الليلة، يتذكر ملامحها، لا يتذكر الأشياء الأخرى جيداً، آخر ما يذكره عندما كان معها ملامح الرجل، الرجل الذى لم يكن يحدثه والأريكة التى كان ينام عليها فى الردهة الضيقة عندما تنتهى جلستهم أمام التليفزيون فى الليل ويدلف الرجل إلى الحجرة الوحيدة ثم تتبعه أمه، يذكر أن الرجل لم يضربه، لا يذكر أنه حدث ذات مرة لم يفهم لماذا وجد أمه تحمل صرة ملابس ذات يوم وتسير به فى الطريق والبلل يملأ عينيها، بعدها لم يعد للمنزل ولم يعد يرى الرجل الذى لم يكن يحدثه، بدأ يرى كثيراً من الوجوه فى مقهى الرجل الغريب الذى تركته أمه لديه عندما سارت به فى شوارع

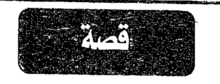
المدينة وبدأ يألف الضوضاء التى كانت تؤلم رأسه الصغير والعمل طول النهار، لم يعد يرى أمه، جاءت إليه مرة، نادته من بعيد وجلست به على الرصيف، قبلته كثيراً هذه المرة وقبل أن تمشى تركت فى حجره بعض الحلوي وثوباً جديداً، لم يرها بعد ذلك، فهم عندما رأى المعلم ذات يوم ينظر إليه ويهمس لمحدثه:

- وجدت طريقاً للسفر... ستعمل فى بيت هناك.

بعدها وجد نفسه يترك المقهى ويسير، لا يعرف إلى أين، كان لا يعرف من «المدينة» سوى البيت المنخفض الذى كان يسكنه مع أمه والرجل عند المقابر وعدة أمتار من الشارع حيث كان يلعب، سار بلا هدف إلى حيث تقوده قدماه ومن يومها وهو يسير، أصبح السير سلاحه كلما كره مكاناً أو وجوهاً، لم يعد له مكان واحد أصبحت المدينة كلها مكانه بعد أن بدأ يتعرف عليها، أصبح لا يحمل هم المأوى والارتزاق، عرف أماكن كثيرة، كل ليلة ينام فى مكان. تحت «نصبه» فى سوق الخضار، أو خلف دورة مياه عامة أو أمام باب جامع أو على سلم عمارة من العمارات الشعبية، كان ينام فى مكان واحد أول الأمر. الحجرة المفتوحة بمحطة السكة الحديد... الاستراحة التى تخلو فى الليل، لم يعد ينام هناك بعد تلك الليلة عندما استيقظ من نومه ليحس بيدين تجذبانه بقسوة وتجردانه، لم يستطع الصراخ عندما أحس فى الظلام بألم وخجل شديدين، بعدها كره الجدران، أصبح لا ينام بين الجدران، أدرك أن هناك أعمالاً مخلوقة له وعرف أماكنها... عند مدخل المحطة يمسح الأحذية أو فى موقف سيارات الأجرة يغسل السيارات أو فى «سوق الخضار» يحمل الأقفاص، عندما يترك عملاً لا يجد مشقة فى أن يجد عملاً آخر، اكتشف أنه كبر ويعرف المدينة الصغيرة أكثر ولكنه اكتشف أيضاً أن المدينة لا تعرفه حتى الذين يعمل معهم لا يعرفون سوى اسمه الذى ينادونه به، ينادونه باسماء كثيرة، فى كل مرة يعمل فى مكان ينادونه باسم مختلف مرة عبد الله. ومرة عبده وأخرى وحيد أو غريب أو منسي، لا يعترض على اسم أو يصححه، لم يعد يذكر اسماً ثابتاً، هو أيهم ينادونه به، لم يصادقه أحد، اعتاد أن يكون صديقاً لنفسه لا يذكر أن أحداً من الذين يعمل عندهم أم معهم سأل عنه عندما كان يغيب أو يترك العمل،... مازال يسير، ابتعد



ضـوء المحطة لـم يعـد يصل أضـواء المنـازل المتناثرة فى الحـقـول لا تضـىء المكان، النسـمـات تزداد برودة، الظلمـة تحتوى المدى إلا من نقطة ضـوء هناك فى آخر مرمى البصـر.. الإشـارة المعلقة وسط الظلام، يقترب من الخـلاء الذى يحتوى المسـاكن تحت الإنشـاء، يستعد للانحدار ليتجه إلى هناك، يسمع نباحاً ضـعيفاً كأنه الأنين، يستدير، يمد بصـره، يرى بقعة بيضـاء مكومة وسط القضبان، يؤجل انحداره، يخطو إلى هناك، ينحنى على المخلوق الصـغير الذى ينتفض، أنات الصـغير تشرخ قلبه، يجثو على ركبتيه، يحمله وينهض، يضـمه إلى صدره ويمسح رأسه، يحتضنه أكثر، يسكن الصغير بين يديه وهو ينحدر به متجهاً إلى حيث سيبيتان ليلتهما.



الخليفة

أحمد محمد عبده

فى القديم القديم. ورث آدم الأرض. فتربع على عرشها . نظر فى الأرجاء . لم يجد رعية ولا حراساً!!.

وكانت تلك هى المرة الأولى. التى يتوق فيها «ملك» إلى إلقاء الأوامر والنواهى!

ولما جاءت حواء. وشبع آدم من كفها . حدث . وللمرة الأولى. أن رأى نفسه . ورأت هى نفسها..!!

فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الجنة.

فحدث.. وللمرة الأولى. أن أشتاق «ملك» إلى أن ينيب عنه ملكاً آخر.

وذلك فى أوقات المرض والسفر والطعام (وقضاء الحاجة ولقاء الزوجة)؟؟

فالعرش . حسب التعاليم.. لا ينبغى أن يخلو – ولو لساعة واحدة – من متربع عليه.

وقبل أن ينتهى آدم .. من أولى مرات لقائه بحواء.

وكانت تلك هى المرة الأولى. التى كان فيها العرش بدون متربع عليه.

استغفر آدم ربه. فتاب عليه

ثم توجه واعتلى العرش
أنجبت حواء ولداً.
أراد آدم أن يقضى بعض أموره. فأجلس ولده على العرش.
وحينما انتهي.. راح يطلب العرش. لكن المتربع عليه ظل متربعاً.
تنحنح آدم. لكن «المتربع» لم يعره اهتماما.
نهره آدم. ثم زغده . ولا مجيب.
ألح عليه فى النزول عن العرش. فهو الأب . وهو الأقدم وجوداً والأوسع عقلاً والأكثر حنكة. ودراية.
لكن المتربع على العرش لم يهتم.
لعن آدم ذلك الماء الذى كان قد أودعه فى رحم حواء بعد مجئ هذا العاق.
وقال:
إنه لن يأتى بأفضل منه..!!
راح يضرب فى الأرض طولاً وعرضاً.
ظل المتربع على العرش متربعاً عليه. إلى أن تجسد الماء الذى فى بطن حواء.
هبط المتجسد من بطنها. ثم بكي.. ثم رضع.. ثم دب على الأرض.
ثم ابتسم .. ثم ضحك .. ثم قهقه.
طلب منه الجالس على العرش أن يجلس فى مكانه ساعة. يقضى فيها أمراً.
وكان أن اشترط عليه ألا يتربع. لكنه تربع..!!
ولما قضى أمره. وقف أمامه.. وطلب منه العرش لكن الجالس عليه لم يلتفت إليه.
نهره ثم زغده. ثم جذبه إلى الأرض.. ثم انقض عليه. فهو الأكبر والأقدم والأوسع خبرة والأكثر حنكة.
وكان أن حدث – وللمرة الأولى – أن يرتمى جسد على الأرض ثم يرتخى .. ثم لا يتحرك .. ثم لا يقوم واقفاً مرة أخرى.
فر القاتل .. هائماً على وجهه فى الأرض.
تقابل مع آدم.. الأب.

كاد الولد أن يفر من أبيه. لولا أن جذبه الأب إليه فى إشفاق واحتواء. وقال له:
سوف يلعنك كل الذين سقطوا على الأرض إلى يوم الدين.
ثم قال:
ستهيم على وجهك أربعين عاما. جزاء ما عققت أباك. وأربعين أخرى جزاء ما قتلت أخاك.
تمكن الولد من الإفلات من بين يدى أبيه. وفر هاربا.
نظر إليه الأب. ثم بكى.
كان آدم قد أقسم ألا يعود إلى هذا العرش أبدا.
سيبحث عن عرش آخر.. فكل الأرض مملكته. لكنه تذكر حواء.
تذكر أن أحشاءها - الآن - فارغة - وأن العرش خال من متربع عليه.
فواصل المسير.
دخل تخوم مملكته. وكان ذلك عند الفجر.
فى هذا اليوم نام.
وفى اليوم الثانى .. قام..
وقعت عيناه على قبر ولده
بكي..
ثم حفر قبراً بجواره
ثم اختلى بحواء..
دعا ربه بذرية صالحة
ثم صعد ليجلس على العرش!!.

رأى

عن ملفات الأدب في الأقاليم

بقلم/ سمير الأمير

من المفترض أن مجلة فكرية / أدبية تصدر عن أحد أحزاب اليسار المصرى ويشرف على تحريرها ناقدة مرموقة بقيمة وحجم «فريدة النقاش» وشاعر كبير بجدية وعمق «حلمى سالم» من المفترض أن تتميز وتنأى بنفسها عن «معجنة» مجلات وزارة الثقافة التى تحولت إلى «سبوبة» لمحرريها وشللهم من منتفعى الأدب ومحترفى سرقة الدعم الثقافى الذى لا يصل أبداً إلى مستحقيه من الموهوبين الحقيقيين فى القاهرة وعموم مصر المحروسة.. لذا تحتم على «أدب ونقد» أن تتعامل مع النصوص الإبداعية والمقالات بموضوعية بغض النظر عن اسم الكاتب أو محل إقامته فنشر الأعمال التى تأتى من أبعد قرية فى الريف المصرى متجاورة مع تلك الأعمال التى يكتبها أشهر كتاب القاهرة وذلك لترسيخ قيم الثقافة الموضوعية والجادة وللانتصار للمواهب الأصلية أينما وجدت ومن هذا المنطلق ولثقتى أنكم قادرون على القيام بهذه المهمة وقد فعلتم ذلك من قبل وكان لكم فضل فى الوقوف إلى جانب أدباء أصبحوا الآن متحققين فى الواقع الأدبى المصرى بل والعربى ومنهم على سبيل المثال القاص محمد المخزنجى والروائى رضا البهات والشاعر طاهر البرنبالى

وأسماء كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

من هذا المنطلق أود أن أهمس لكم ببعض الملاحظات حول سياسة النشر للأدباء ضمن ملفات تكرس للجغرافيا أكثر مما تكرس لقيمة الأعمال الأدبية ولكتابها وأوجز ملاحظاتي في النقاط التالية:

أولا: - أليست القاهرة هي أيضاً إقليم مثل بقيمة أقاليم مصر؟ فهل ستنشرون قصائد أحمد عبد المعطي حجازي وقصص بهاء طاهر في ملف يحمل اسم «القاهرة الكبرى والقليوبية» هل ستنشرون مقالات رجاء النقاش وصلاح عيسي ضمن ملف الدقهلية حيث ينتمي الأول «لمنية سمنود» والثاني لقرية «بشلا»؟

ثانيا: - هل يمكن اعتبار الملف الأدبي الخاص بإقليم معين ضمن المتن أم ضمن الهامش؟ فإن اعتبرتموه متناً فلماذا تضعونه بين قوسين كبيرين ألا يدل ذلك على تهربكم من التقييم العام للأعمال المنشورة، الموقف الذي ربما يعبر عن الكسل أكثر مما يعبر عن الاهتمام.

ثالثاً: هل تريحون ضمائركم المعذبة نتيجة شعوركم بالتقصير في حق الأدباء (المتعشمين فيكم) فتتخلصون من هذا الشعور بوضعهم في سلة واحدة تسمونها تهذباً «ملفاً»؟

رابعاً: - وهذا مطلب شخصي - أرجو ألا تنشروا أيا من قصائدي التي أرسلتها بالبريد أو مع الأصدقاء ضمن هذه الملفات الجغرافية وذلك لأن أمي تصر على أنني «دقهلاوي» بما أنها من «ميت سلسيل» ويصر أبي على أنني «شرقاوي» بما أنه من «منشأة الأمير» أما زوج خالتي فيطالب بضمي إلى محافظة دمياط حيث استضاف أمي في شهرها الأخير وحدث أن ولدت هناك وهذا يجعل وضعي في ملف معين أمراً بالغ التعقيد وينذر بعواقب عائلية وخيمة.



إشارات

محمد الماغوط

فى أوائل أبريل الماضى مات محمد الماغوط عن اثنين وسبعين عاما فهو من مواليد مدينة «السلمية السورية» سنة ١٩٣٤وقد بدأ اسم محمد الماغوط يتردد فى الحياة الأدبية العربية منذ حوالى سنة ١٩٥٥ وارتفع نجمه بعد ذلك بسرعة شديدة فى الستينيات وما بعدها حتى أصبح اسم الماغوط له ضوء ساطع لا يشبهه ولا يساويه ضوء آخر فقد كان الماغوط صاحب موهبة فريدة مستقلة يصعب أن تتكرر بهذه الصورة النادرة. وقد يتصور البعض أن الماغوط هو ثمرة تعليم متميز فى العالم العربى أو فى الخارج، وقد يتصورون أن تاريخه الشخصى ملئ بسنوات من القراءة والبحث عن أسلوب خاص به ولكن الحقيقة غير ذلك فإن الماغوط لم يحصل على أى تعليم منتظم، وقد هرب من مدرسة زراعة متوسطة التحق بها لأنها كانت مدرسة داخلية تقدم له المأوى والطعام، وكان الماغوط من أكثر الفقراء فقرا فى بلاده بل فى هذه الدنيا كلها. وقد كان هذا الفقر هو الوحش المفترس الذى أنشب أظافره فى جسم الماغوط فى بداية حياته

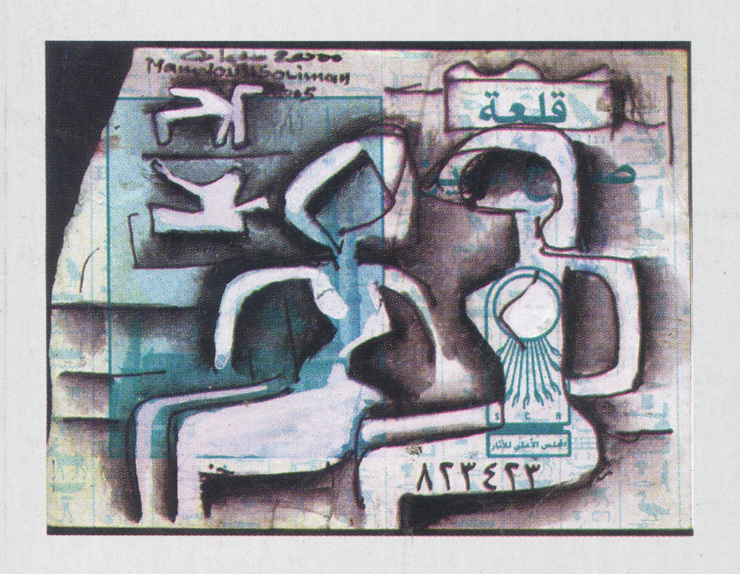
ولكن الماغوط قاوم هذا الفقر وخرج من سجنه القاسى بموهبته الفريدة وليس بالشهادات والوظائف الغريبة التى حصل على بعضها مثل تلك الوظيفة التى حصل عليها فى الستينيات، وهى وظيفة رئيس تحرير مجلة الشرطة فمحمد الماغوط كان مطارداً من أجهزة الأمن وقد دخل السجن سنة ١٩٥٥ متهما بالانتماء إلى حزب ممنوع هو «الحزب القومى السورى» الذى تم إعدام زعيمه أنطون سعادة سنة ١٩٤٩، وبعد خروج الماغوط من السجن الذى قضى فيه تسعة أشهر بدأت أجهزة الأمن تشعر أنه لا خطر منه كإنسان «غلبان» يعيش فى حاله، أما خطورة أدبه فلم تكن تعنى أجهزة الأمن فى شىء فقليلا ما تخاف أجهزة الأمن من الأدب شعرا أو نثرا. ولكنها تخاف من الإنسان النشيط الذى يتحرك ويحرك غيره، ولذلك نال الماغوط هذه الوظيفة التى كان آخر من يصلح لها، وهى رئاسة تحرير مجلة الشرطة، وبينما كان الماغوط يعيش كموظف مطيع وإنسان انطوائى لا يلفت الانتباه إليه، كانت كلماته تهز أرجاء العالم العربى وتتردد فى كل مكان، وتثير الغضب فى النفوس وتحرك الضمائر، وتلفت الأنظار بقوة ساحرة إلى القضية الكبرى التى عاش من أجلها الماغوط طيلة حياته وهى قضية الإنسان العربى العادى الذى يصارع الفقر وكثيرا ما يصرعه هذا الفقر ويقضى عليه.

محمد الماغوط أديب ليس معه شهادات ولم يلجأ إلى حماية حزب أو دولة ، وقد عاش ومات وهو لا يعرف أى لغة أجنبية، وكان لا يتباهى بشىء ولا يعتمد على شىء غير موهبته، وقد عبرت هذه الموهبة كل «الحدود» فى قضية الفيلم المعروف بهذا الاسم، والذى كتبه الماغوط وقام ببطولته رفيق عمره الفنان دريد لحام. وقد قدم دريد أيضا للماغوط عددا من المسرحيات الرائعة من أشهرها وأبدعها «كاسك يا وطن».

الماغوط فنان سوف يقف التاريخ أمامه طويلا وسوف يقرأه الناس جيلا بعد جيل، ولن يملوا منه أبدا كما شعروا بالملل من بعض الذين كان لهم ضجيج وضوضاء، فأصبحوا غارقين فى صمت يحيط بهم ويفرض عليهم أن تبقى صفحاتهم مطوية لا يفتحها أحد.

الماغوط فنان فريد، وأدبه من أخطر ألوان الأدب التى عرفتها الثقافة العربية فى تاريخها كله. وقد كان بيكاسو يتباهى بعبقريته ويقول: «أنا لا أبحث .. أنا أجد» ولعل هذا القول مما ينطبق أيضا على الماغوط، فقد كان صاحب موهبة غزيرة العطاء.. وكان يجد ولا يبحث!

رجاء النقاش



الأمل للطباعة والنشر رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢ «الثمن: ٣ جنيهات»